سمر يزبك

رائحة القرفة

رواية

دار الآداب - بيروت

سمر يزبك

رائحة القرفة

رواية

دار الآداب - بيروت

رائحة القرفة

سمر يزبك/روائيّة سوريّة
الطبعة الأولى عام 2008
الطبعة الثانية عام 2009
ISBN 978-9953-89-041-8

دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير ـ بناية بيهم
ص.ب. 11-4123
بيروت ـ لبنان
هاتف: 861633 (01) - 861632(03)
فاكس: 009611861633
e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb
Website: www.adabmag.com

إلى نوّار..

حين غبْنا وحيدتين في هذا العالم المجنون

إنَّه خط الضوء المائل!

الباب كان مواربًا. ولولاّ الضوء المنبعث كخطّ مائل نحو مرآة الممر، لَما انتبهت حنان الهاشمي إلى الهسيس، وهي تمشي حافية القدمين، بعد أن قفزت من فراشها كملسوعة، تحلم أنَّها تحوَّلت إلى امرأة بخمس أذرع، وثلاثة أثداء.

كانت ما تزال تهذي. تتلمَّس جسدها. تتحسَّس الدانتيلا النبيذي الملتصق بصدرها. تبحث عن استطالات وأذرع جديدة. لم تصدِّق أنَّها ما زالت على حالتها الطبيعيّة، حتى هبطت درجات السلم الخشبي، وركضت نحو مرآة طولانيّة، احتفظت بها من أثاث بيت المهاجرين القديم. تعرف أنَّ المرآة لن تكذب عليها، وستجعلها تطمئنّ إلى أنَّ أذرعًا نحيلة ومخيفة، لا تتراقص حول جسدها كأفاع.

لكنَّه خط الضوء!

خط النور المائل الذي قسَّم الممر إلى شطرين، هو ما جعلها تفيق من كابوسها، وتنتبه إلى أنَّها حافية القدمين. تسمع هسهسات تنبعث من غرفة زوجها.

وقفت متصلِّبة. عيناها جاحظتان، لم تحرِّك قدميها لتعرف ما يحدث داخل الغرفة التي لم تدخلها منذ سنوات، ولا تذكر محتوياتها. لم ينتَبْها أيّ فضول لمعرفة المكان الذي ينام فيه زوجها. فقط، كانت تنتظر رحيله.

خطت نحو المرآة. وقفت بعريها بعد أن أضاءت الممر. ولم يكن يسترها سوى ثوب الدانتيلا القصير. حملقت في المرآة. لمعت فكرة غبيّة في ذهنها؛ فضول أعمى لمعرفة ما يفعله زوجها. هل جننتُ؟.. تساءلت.

دقّقت في وجهها بالمرآة. لمعت عيناها. مسدت وركيها، وهي تحبس أنفاسها. ضحكت وشعرت بامتلاء بالسعادة. نسيت للحظات، ما وصل أذنيها من الغرفة، مستغرقة في الغبطة التي تحسُّها بتأمُّل تفاصيل جسدها، أمام المرآة. ترفع ثوبها القصير، تتأمَّل ردفيها بفضول، وكأنَّ ما تشاهده هو جسد امرأة أخرى. تتلمَّس سطح المرآة. تنتقل بأصابعها إلى وجهها، تمسِّد خدّها. تحسّ بالرضا للنعومة التي تشبه سطح المرآة الصقيل. تشرع في الضحك. تضع كفّها على فمها كتلميذة خجول.

مدَّت يدها وأطفأت النور، تفكِّر بالظلّ الذي ستلمحه أمام المرآة، بعد أن تيَّقنت أنَّ وجهها بقي على حاله. لكنَّها غرقت فجأة في العتمة، وانتبهت إلى أنَّ الضوء المنبعث من غرفة زوجها، قد اختفى، والباب الموارب قد أُوصد. ارتجفت.

حاولت أن تتماسك. الاحتمال الوحيد الذي مرّ على بالها، هو أنَّ لصًّا اقتحم الفيلا. تيبَّس الصراخ في حنجرتها، وبحثت وسط العتمة عن الجدار، تتلمَّس الأمان. تنفَّست بصعوبة. فكَّرت في الوصول إلى أقرب هاتف، لأنَّها متأكِّدة أنَّ زوجها لن يستيقظ حتى ساعة متأخِّرة. وإذا حدثت معجزة وفعل، فلن يُطفئ الأنوار فجأة، عندما يسمع وقع خطواتها.

التصقت بالحائط حتى صارت جزءاً منه. كوَّرت جسدها وذراعيها، كتمت أنفاسها. عندما انقضت دقائق، وهي ما تزال على هذه الحال، سطع ضوء من الغرفة، وعادت الهسهسات ثانية.

هسهسات ناعمة. ضحكات خافتة، وأنين ملتاع. مشت ببطء وتثاقل، محاولةً التكهُّن بمصدر الصوت. جسدها يرتجف بشدّة. وقفت أمام مقبض الباب. التصقت به. فتحته بحركة عنيفة. صارت وجهًا لوجه أمام ما يحدث في الغرفة التي تحوَّلت إلى مسرح مظلم، تضيئه بقعة ضوء شاحبة. بهِق وجهها، وتحوَّلت مسام جلدها إلى حواف سكاكين حادّة، برزت على شكل حبيبات ناعمة، من أخمص قدميها حتى مفرق شعرها المنكوش.

كان زوجها العاري ممدَّدًا على السرير، وتغضُّنات ألم واضحة على وجهه. ليس الألم تمامًا. هذه التعابير لم تعرفها من قبل. تعيد تشكيل ملامحه. لم يكن هو نفسه، لكنَّه زوجها، وهناك مثل نفق عميق وسط الضوء الباهر، كانت... عليا.

هذا ليس حلمًا؟ هي ليست مستلقية على فراشها، وقطرات العرق تنز من كابوسها. إنَّها عليا التي تعرفها أكثر مما تعرف نفسها! إنَّها هي!

عليا التي تتلوَّى لصق الزوج بغنج، وقد تصلَّب جسدها فجأة، عندما لمحت سيدتها، لكنَّها بقيت تحدّق في عينيها بثبات حادّ. كانت كلتاهما تمتصان خيطًا حادًّا من النور المتوهِّج، استقرّ في بياض عينيهما، واخترق مسام الجلد كحدّ سيف. لم تتفوّه أيٌّ منهما بحرف. وجسد الزوج الفاصل بين جسديهما، ساكن، مفضوح بعريه الذي لا تعرفه. عاشت عمرها معه، وهي تعتقد أنَّه بلا تفاصيل. حتى إحساسها بثقل جسده فوقها، لم يكن إحساسًا أنثويًّا بوزن رجل. كان إحساسًا بالثقل فقط. لكنَّه الآن عارٍ! متهالك، ينظر إلى الفراغ، ويبدو غير عابئ بما يحدث حوله. صالب يديه فوق بطنه، وتنفَّس بعمق، وكأنَّه يستعدُّ للغوص في محيط عميق. انزلقت عينا حنان سريعًا على جسده. عادت للتحديق داخل عيني عليا وفي تأمُّل تفاصيل جسدها. الأصابع التي تعرفها جيِّدًا يابسة، شديدة الزرقة، وعروقها الخضراء ترتجف

وهي تحاول إفلات قطعة اللّحم الرخوة. ضمّت حنان أصابعها، أحسَّت بتيبُّسها. بدت عليا كما لو أنَّها ستنطلق في سباق طويل، منحنية، متوثِّبة فوق السرير. لم تجرؤ على الاستقامة. شعرت أنَّ ظهرها سينقصم إذا بقيت ثواني أخرى على هذه الحال. انحبس الهواء في رئتيها، وخافت أن تتنفَّس، فتحدث كارثة، وتقع جدران البيت على رأسها. وحنان التي تسمع ضربات قلبها المتسرِّعة، وتتنفَّس بصوت عال أقرب إلى حشرجة اختناق، أمسكت بطرف السرير، وتقدَّمت خطوة. وفي اللحظة التي رفعت كفَّها في الهواء، انزلقت عليا تحت السرير، ومرّت كسحلية من تحت أقدامها، يلمع الضوء في عينيها، وتركض نحو غرفتها، وهي تسعل بشدّة، بعد أن تنفَّست قليلاً، وهي تكاد تختنق.

تتأمَّل حنان قبح عضو زوجها المتدلِّي كخرقة، تصرخ: عليا.

لم تعرف من أين يخرج صوتها. من حلقها أم من مسام جلدها الإبريَّة.. أم من الأثداء والأذرع التي تطايرت فجأة في فضاء الغرفة؟

كان طعم الخيانة المباغت، السبب في جنونها ذاك. أخذت تدقّ بجنون، باب غرفة الخادمة المغلق عليها من الخارج. تصرخ فيها لاهثة. وفجأة قررت أن تتماسك. توقفت أصابعها عن معالجة الباب، وخطت نحو غرفتها، بعد أن أصدرت، بصلابة، الأمر للخادمة بالرحيل.

أغلقت بابها وراءها. جلست تحاول السيطرة على لهاثها الذي يتصاعد من جديد. قرَّرت أن تمحو عليا من حياتها نهائيًّا، وكأنَّها لم تكن يومًا هنا. ستشطبها مثل كلمة مدوَّنة بقلم رصاص باهت، جاهزة للمحو السريع. تسمع دبيب أقدامها في الممر، وهي تنسحب كلصة. تمضي إلى ذلك الزقاق الضيِّق القذر الذي خرجت منه؛ بين أكوام الصفيح، وبكاء الأطفال الحفاة، الأطفال العراة الذين يلعقون مخاطهم، ويتدلُّون من حاويات القمامة، كأغصان برتقال محروق.

شعرت بارتياح مَنْ يستيقظ من كابوس، وهي تسمع صرير باب السور الخارجي. ثم ساد الصمت. فجأة هبَّت إلى النافذة، أزاحت الستائر، وتلصَّصت بخوف. تراقب خيال عليا، وتتمنَّى أن يكون هذا الخيال حلمًا أيضًا، مثل خط الضوء المائل. تحاول أن تفتح النافذة بيديها المرتعشتين، فتتحوَّل إلى تمثال من الحجر، وتأنف أن تصيح باسم عليا، وتطلب منها العودة. لوهلة فكَّرت بذلك، لكنَّها تراجعت عن قرارها في اللحظة نفسها. ضغطت ثانية بقسوة حتى طقطقت عظامها، وتأكَّدت أنَّها كائن من لحم ودم.

بقيت تراقب خيال عليا في الفجر الأزرق، وتذهب بعينيها إلى البعيد، حيث لاحت أسراب من الطيور الغريبة، وكأنَّها تودِّع الصغيرة المتعثِّرة في مشيتها. عندما اختفى خيال عليا، أغلقت الستائر، واندسّت في فراشها، وهي تتشمَّم رائحة شراشف الليلة الماضية، رائحة القرفة.

* * *

إنَّه خط الضوء المائل!

الضوء الذي سيجعل لياليها تغرق في العتمة، بعد أن نسيت إقفال باب غرفة السيدة، عندما انسلّت من الطابق العلوي إلى غرفة السيد.

وفي الوقت الذي كانت حنان الهاشمي تنزل الدرج، كانت عليا ترتجف من الخوف. فكَّرت أنَّ سيِّدتها لحقت بها، وستكشف أمرها أخيراً. توقفت عن الحركة، تنتظر أن ينفتح الباب، وتلمح الظلّ الذي يتحرَّك وراءه. تيبَّست يدها، وأرخت ثقلها من فوق جسد السيد. تهاوت بجواره. لم تستطع فكّ أصابعها المتشنِّجة حول شيئه. تفكِّر في القفز من النافذة، أو الاختباء تحت السرير، لكنَّها لم تقوَ على الحركة، كأنَّها في حلم. كان خط الضوء هو الحقيقة التي جعلتها تمرق كسحلية من تحت أقدام حنان الهاشمي.

تستغرب كيف طارت من سرير السيِّد إلى غرفتها. وفي اللحظة التي ارتطم رأسها بالأرض، ظنَّت أنَّها في كابوس تهوي فيه نحو حفرة لا قرار لها. لكنَّ صوت الأقدام الذي يقترب من غرفتها، جعلها تتأكَّد أنَّ ما يحدث أمر واقع. وعندما أخذت السيِّدة تدقّ بعنف على الباب المقفل بإحكام، أفاقت وعرفت أنَّ وقت اللعب انتهى. كانت تعرف أنَّ سيِّدتها تريد أن تمزِّقها بأسنانها، لأنَّ صوت اصطكاك أسنانها كان مسموعًا كصرير باب عتيق. تنشج مثل طفلة. تصرخ وتصفها بالمتسوِّلة القبيحة ذات البثور السوداء.

قبل أن ترتدي ثوب نومها، وتمضي من غرفة سيِّدتها إلى غرفتها، كما طلبت منها حنان الهاشمي، كانت تشعر بغبطة سرِّية تحوّل جسدها إلى كتلة من الارتعاشات اللذيذة، وهي تتذكَّر كيف كانت عينا حنان تفوران بالرضى والحب.

كيف تصفها الآن، بالمتسوِّلة القبيحة؟ كيف تحوَّلت العينان الجميلتان إلى حريق؟ أخذت شفتاها ترتجفان، وهي تجمع ثيابها، بينما تهبّ من أطرافها رائحة برد غريب. البرد غريب في عزّ الصيف الحارق، عندما تنزّ قطرات العرق المالحة فوق الجلد، فينتفض جسد عليا بإحساس جليدي عن صور في ذهنها المشوَّش، لحكايات الموت بردًا، وسط شارع خاوٍ ورصيف قذر. لذلك كانت تقضي نهاراتها تحلم بالليل الذي سيحوِّلها إلى

ملكة. تفكِّر بالتفاصيل، تفاصيل الليل الذي تحبّه، وتنتظره. الليل الذي تطلبها فيه سيِّدتها بعد عودتها من إحدى سهراتها. ليل التواطؤ القادر على ملامسة شغاف قلبها.

تمسك صولجانها في النصف الأول من الليل. تتحسَّس تاج سيادتها اللامرئي، تغفو قليلاً، وعندما تصحو تتناوم في سريرها، مرّة أخرى، جاهزة لاستدعاء السيِّدة.

في النصف الثاني، تتسلَّل إلى غرفة سيِّدها. تنام قربه عارية، تعبث بلحمه المترهل. ثم تغادره إلى غرفتها، لا يتأفَّف من عبثها بجسده، حين لا تفلح في جعله يستعيد بعضًا من رجولته، وهو ما لم يكن يعنيها في شيء؛ لأنَّها تفضِّل الاستلقاء بحضنه، والإصغاء إلى أنفاسه المحروقة.. في كلّ مرّة تفعل ذلك، وقبل طلوع الفجر بقليل، تعود إلى غرفتها. تستحم، وتنام كقتيلة، فهي تعرف أنَّ النهار قادم، وستخلع عنها رداء السحر، وتعود إلى تلقي الأوامر.

لم تدرك أنَّ خطّ الضوء المائل الذي نسيته في غفلة، سيحوِّل مملكتها إلى خراب، رغم أنَّ عرشها ذاك، لم يكن يحتاج إلى الكثير من المهارة، بعد أن تعلَّمت فنون الحياة، وكيف تستطيع أن تكون الأقوى في السرير. وغاب عن خيالها، التفكيرُ بمرور سيِّدتها الخاطف آخر الليل، إلى غرفة الطابق السفلي، بعد أن تركتها تعوم في نومها.

اللحظة التي نظرت فيها الشرر بعيني سيِّدتها، قذفت بها إلى ذكريات خوف استعادته تمامًا؛ الخوف من شيء مجهول لم تعرف كنهه يومًا، مع أنَّ طعم الخوف سكن قلبها منذ زمن بعيد، لكن غشاوة كانت تفصلها عنه، غشاوة رقيقة وهشة لن تزيدها صلابة كل التجارب التي ستعيشها في سنواتها القادمة. فهي محفورة حتى أعمق نقطة في قلبها. ولم تستطع السنوات التي ابتعدت فيها عن عالم الطفولة، أن تمحو من عينيها ذلك الارتجاف القلق، والتشنُّجات الحادّة في وجهها، التشنُّجات التي وجدتها حنان الهاشمي مصدر جاذبيتها، وهي نفسها التشنجات التي عادت في لحظات، إلى تشنُّجات رعب؛ تتحرَّك عضلات وجهها بشراسة.. خدها الأيمن يعلو، فيهبط الخد الأيسر، وتنفرج شفتاها عن أسنان صغيرة، ثم تعضّ الأسنان الشفتين، وترتجف العينان، وهي تحاول منع دموعها من التدفق. فتختنق بها.

في ذلك الزمن الخاطف الطويل كمئة عام، وهي تهرب إلى غرفتها، تذكر كيف اختفى الضوء من عينيها، وكيف هربت بعريها من غرفة العجوز، وشعرت بسقوط في الهاوية، فأقفلت الباب، وألقت بنفسها على البلاط، وأجهشت ببكاء أوقفه صوت حنان الهاشمي، يأمرها بالرحيل.

كانت تفكِّر في أنَّها لو خرجت من غرفتها، ورمت بنفسها في حضن سيِّدتها، فإنَّها ستقلب السحر على الساحر،

وستجعل قلبها يرق. فالليل ما يزال ليلاً، والنهار لن يطلع عما قريب، وما تزال هي الملكة الوحيدة. وعندما يطلع النهار، وتتحوَّل إلى خادمة من جديد، سيكون لها شأن آخر. فكَّرت أنَّها تستطيع أن تفعل ذلك لثقتها بسحر الليل، لكنَّ الشراسة التي رأتها في عيني سيِّدتها منعتها، فحملت حقيبتها بهدوء، وانسلّت من الفيلا، دون أن تنظر إلى الخلف. ولم تنتبه وهي تغادر، أنَّ حنان الهاشمي لم تزل واقفة وراء النافذة.

* * *

لم يكن سوى خط الضوء الذي تحوّل إلى إشارات طريق قادت حنان إلى الهاوية، وجعلتها تودّع خيال عليا من وراء الستارة، بعينين مفتوحتين كمغارتين. تضغط بيدها على كتفيها لتسمع طقطقة عظامها وتتأكّد أنَّها ليست في حلم، ثم تندسّ في فراشها، وكلُّها ثقة بأنَّها ستصحو في حال أفضل.

لكنّه خط الضوء أيضًا، الذي تحوّل في الكابوس، إلى سوط نار يجلدها حتى يهترئ لحمها، وتنفر عظامها. ثعبان نار يخرج من الباب الموارب، وينتهي برأس عليا، وهي تمسك بقطعة لحم رخوة، بين فخذي زوجها. تكبر قطعة اللحم وتتحوّل إلى أفعى. تركب عليا فوق الأفعى. ينبت للأفعى جناحان، تطير وتدوّم وتخبط الأجنحة بوجهها.

تقوم من كابوسها. تقفز من فراشها ثانية، كملسوعة، تنظر عبر الستارة: ربما كان كابوسًا؟ الأمر برمّته أحلام مزعجة!

كانت تهمس لنفسها، وتحرِّك يديها في الهواء، تكشَ أشباحًا من حولها، اعتقدت أنَّها نامت ألف سنة، لكنَّها عرفت أنَّها لم تغفُ أكثر من ساعة. طارت إلى مرآتها:

- **لن أتحوَّل إلى تمثال من الرعب. ستختفي أطرافي القذرة، وبعد قليل تنتهي من النمو في أيّ لحظة. كل ما عليَّ فعله أن أتمالك نفسي.. أيَّتها القذرة؟** تضرب مرآتها العريضة في الحائط.

- **أين كنت قبل الآن؟ أنا المرآة، ومن منّا لا تعرف عن نفسها أكثر ممّا تعرفه الأخرى. لن يكون هناك وقت للحديث بعد هذه اللحظات.**

- **أعرف أنّي أتخيَّل، وكل ما يحدث هو حلم، ليس حلمًا. مجرد عرض مؤقت لعقلي الباطن.**

تقول لنفسها، وهي تزهو بوجودها أمام مرآتها، تقف على حافة السرير، وتحدِّق في سطحها الأملس، وكأنما تبحث في منطقة بعيدة، عن شخص تجهل ملامحه:

- **لم أطردها. لا يمكن أن أكون طردتها، ما تزال نائمة في غرفتها، تنتظر النهار لتبدأ عملها.**

تضرب المرآة بيدها. تحدِّق في العينين المتحديتين في المرآة، وتهزّ رأسها بعنف:

- **لم أخرج من غرفتي. هذه صور تدور في رأسي المتعب.**

تخبِّط على صدرها وتزمُّ شفتيها. تتحسَّس ذراعيها وثدييها. تمسك المرآة من طرفيها، تحضنها، وتصرخ:

- **ما يزال يشخِّر. التمساح العجوز، لا يمكن أن تكون اقتربت منه أو التصقت به هكذا. لن تجعل جسدها يقترب من برودته؟**

ابتعدت عن المرآة، وأشعلت سيجارتها، وأزاحت الستارة. تأمَّلت الطيور التي تغيِّر شكلها، وتحوَّلت إلى نثار من النقاط المختلفة الألوان. كانت هناك عدة غيوم بيضاء ترسم أشكالاً مختلفة. تخيَّلت لوهلة، أن هناك من يراقبها ويجلس فوق الغيوم. أغلقت الستارة، وقفزت فوق السرير. صالبت رجليها، وحدَّقت في المرآة ببلاهة. تلمح امرأة أخرى تشبهها، تهمس لها بصوت يشبه الفحيح:

- **ولكن هل تكذبين على نفسكِ؟ أنت تشعرين بالغيرة عليها. خادمة لا أصل لها، ولا نسب. جعلتك تكلّمين نفسك. من يغار من خادمة هزيلة وسافلة تضاجع عجوزًا، وتلتهم قضيبه مثل.. ساقطة؟ إنَّها تأكلك بما فيك، تنخرك مثل دودة، وتمتص رحيقك.**

تنشج بصوت مبحوح وتصرخ:

- **أريد أن أضمّها إلى صدري.**

تشعر بجلدها يحكّها، تتحسّس وركيها، تشدّ شعرها بقوّة، فتصرخ من الألم. تقفز نحو النافذة. تتخيّل أنّها سمعت صوتًا يناديها. تزيح الستارة وتفتح النافذة. تلمح بين الغيوم عيونًا شاخصة إليها. تغلق الستارة من جديد، وتتشمّم رائحة شراشفها:

- **هل جننتِ ؟ رأيتها بعينيّ. كانت في سريره. عقلك الباطن أيّتها العاهرة، أنت تعرفين ما الذي يستطيع أن يفعله عقل باطن بامرأة مهووسة بالبذاءات.**

- **ليست بذاءات، عليا رقيقة. هشّة، ناعمة. ولا أحد تذهب إليه. ستعيش في الشارع.**

تصرخ المرأة الأخرى داخل المرآة:

- **هي مجرد أصابع، استبدليها بغيرها.**

تقف حنان على رؤوس أصابعها، وتنفض شعرها، وهي ترتجف، وتحاول إطباق شفتيها حتى لا تسمع ما يردّده صوتها. تلتصق بالمرآة، وتخفي خيالها بكفّيْها.

تبتعد عن المرآة، وتختبئ في سريرها. تتكوّر حول نفسها مثل كرة. تغطي رأسها بالملاءة. تترك عينيها مفتوحتين في المرآة، تغمضهما ثم تنشج وترتعش. تسدُّ أذنيها بالملاءة، فيكبر الصوت:

- **لم يكن حلمًا، اركضي إلى الأسفل. آثار لعابها على جلده السميك. آثار شفتيها فوق جلده، انظري إلى نفسك أيتها الشقيّة، وابكي ما شئتِ، فقد تحوّلت أيامك إلى كوابيس.**

رمت الملاءة على الأرض، وقفزت فوق السرير، ثم سقطت تحاول النهوض من جديد. كان السرير يتحوّل إلى بركة رمال متحرّكة، لا تكاد تقف حتى يهتزّ تحت قدميها، فتعاود السقوط. تتوعد المرآة:

- **لا تتفوّهي بحرف واحد، لا تحدّثيني عن العذاب، فأنا أعرفه خيراً منك. وأحفظه في صناديقه المخمليّة هنا. أنظري إليّ. اضغطي على قلبي وستعرفين قبل أن أكسرك وأحوّلك إلى شظايا. هل تصدّقين أنّك عشت؟ أنت مجرّد فراغ وهواء. لم تكوني أبداً، لكنّك ستر تاحين من عذاباتك، لو فعلت خيراً، وأغمدت النصل الشهي في قلبك. هيا افعلي.**

تضرب بيدها على قلبها في المرآة. تضحك بصوت عالٍ، وترتسم على وجهها علامات فرح. فجأة تقطّب جبينها. وتزمّ شفتيها:

- **لن أفعل. لست متأكّدة من شيء.**

- كاذبة. أنت تكذبين، منذ أن كنت طفلة حتى الآن، تكذبين وتوزِّعين ابتساماتك الشاحبة، حتى يدور الجميع حولك ويصفِّقوا لك. ولكن هل تنظرين الآن أين أنت؟ أنت سجينة خادمة قذرة.

- **أرجوك ابتعدي عنّي. ما هاتان العينان الصفراوان؟ ولماذا يتحوَّل شعرك إلى أفاعٍ عملاقة؟**

تقوم أخيراً من بركة الرمال المتحرِّكة، وتخطو بضعَ خطوات متثاقلة. تشعر بنفسها نملة صغيرة، وأبعاد الموجودات حولها تكبر وتتّسع. السرير بحجم قطار، والمرآة بحجم سماء، والأرض من تحتها حفرة تهبط فيها مع كل خطوة، لا تقوى على الثبات. وتدخل في نوبة من الارتعاش.

تتهاوى على فراشها.

- **لا أستطيع. أنا مشتاقة إليها. لمَ طردتها؟ هل فقدتُ عقلي لأرميها هكذا؟ ربما تعود. من المؤكَّد أنّها ستدقّ الباب بعد دقائق. لا مكان في العالم تذهب إليه بعيداً عنّي.**

- إذًا احترقي في نارك التي ستأكلك، وتحوِّلها إلى سيِّدة جديدة للبيت. لن تعرفي ملامحك بعد ذلك.

تقفز ثانية من مكانها، وتخبط على المرآة التي خرج منها صوت قوي، مع صوت الريح الذي جعل الستائر تتطاير في الغرفة، ريح الصباح التي فاجأتها في عز الصيف!

- **تكذبين وتعرفين أنَّني لم أطلب شيئًا من الحياة. أريدها فقط أن تعود.**

تجلس حنانِ على الأرض. تخرج من المرآة امرأة مسنّة تشبه حنان. كانت صورة الأم تخرج من أعماقها، وتعبس في وجه ابنتها. تخاف حنان وتلفّ رأسها بملاءتها ثانية، كما فعلت عليا عندما هربت من خط الضوء المائل.

تسمع صوت الريح ثانية. وتتلاشى أمها مع الستائر.

* * *

تتلفَّت عليـا بين لحظة وأخرى، تراقب نافـذة السيـدة. تتمنى أن تُفتح فجأة، وتلوِّح حنان الهاشمي بيدها، وتدعوها للعودة. لكنَّ النافذة بقيت مغلقة، والكعب العالي لم يساعدها على السير بثبات.

تشعر ببرودة يقشعرُّ لها جلدها. حقيبتها ثقيلة، ولا تعرف، بالضبط، الأشياء التي ألقت بها إلى جوفها قبل أن تغادر. لكنَّها تذكر أنَّها خبّأت الصورة أولاً؛ الصورة الباهتة الممزّقة الحواف، وأربعة مجلّدات من الكتب القديمة، تحمل عنوان كتاب أثير حفظته طوال السنوات التي قضتها في خدمة سيِّدتها. كتاب «ألف ليلة وليلة» الذي سرقته من المكتبة خلسة، بعد أن مُنعت من دخولها، ومنه تعلّمت كيف ترسم الحكايات بالصور، وأطلقت عليه عنوان «الجدّة» بعد أن شاهدت في التلفزيون، كيف تتحوَّل مهمة الجدّات إلى سحر يومي، وهن يروين حكاياته للأحفاد. كانت تحلم أنَّها حفيدة

مدلَّلة، ولديها جدّة تضع نظّارات مذهَّبة، وتجلس قرب سريرها النحاسي، تروي القصص، وتنقل حلمها إلى أرض الواقع، في آخر الليل.

لقد جعلها هذا الحلم تخلق مسرحًا صغيرًا فوق سريرها. تمسك بالكتاب مثل جدّة رزينة، تسعل بوهن، ثم تقرأ بصوت خافت لكنَّه مسموع، وهي تضع نظّارات سرقتها من خزانة السيّدة. تجد صعوبة في ذلك؛ فالنظّارات شمسيّة، وذات لون بني، بحيث تصبح القراءة صعبة عليها، فتجعل النظّارات في أسفل أنفها، لأنَّ الزجاج البني يحجب الرؤية، ثم تتوقَّف بين مقطع وآخر، وتنظر إلى يسارها، وتحدِّث حفيدتها المفترضة عليا. وبعد أن تنهي حديثها تترك الكتاب جانبًا، وتستلقي، وهي ترجو جدّتها ألاّ تتوقف عن القراءة حتى تنتهي الليلة. ويدرك شهرزاد الصباح. كانت تحفظ كل قصص الكتاب، وتعرف شخصياته، وتبكي كثيرًا من أجل أميراته الجميلات وعشاقه وعاشقاته، وتُفتن يومًا بعد يوم، بشخصية شهرزاد. كانت تتمنَّى لو استطاعت أن تفعل مثلها، ولكن من يصغي إليها!

ولم تعد تُجِدْ رواية القصص فقط، بل برعت برسمها وتمثيلها. أحيانًا تتمتم بتعاويذ حفظتها من الكتاب، لتطرد الأرواح الشرّيرة، ولتجعل نفسها في مأمن. تتقمَّص دور الساحرة

الشرّيرة، فتبقى نهارها عابسة، تنظر إلى من حولها بتوجُّس وريبة، وتنفخ أحيانًا في الهواء مثل تنين، مما يضطرّ الطبّاخة إلى الابتعاد عنها، وهي تؤكِّد لزوجها، أنَّ الخادمة السوداء القذرة مجنونة، ومسكونة بالجن. صار الكتاب حديقتها السريّة، ولم تكن لتتركه رغم أنَّه ثقيل وأوراقه مهترئة، ورغم خوفها من ملاحقة السيِّدين لها بتهمة السرقة، لكنَّ ذلك لا يهمّ، ستأخذه معها. لفّته ببعض القمصان ورمته في أسفل حقيبتها، ثم وضعت فوقه كل رسوم الحكايات التي حفظتها عنه، وكانت خبّأتها تحت فراشها، إضافة إلى الدفتر المخملي الأحمر، ذي الحواف الذهبيّة، الذي احتفظت به منذ أن بدأت تدوِّن يومياتها في البيت، ومنذ أدركت أنَّ عليها كتابة ذكرياتها في حي الرمل، بعد أن صارت تقضي أوقات الفراغ المتبقية من نهارها، في المكتبة الأنيقة المطلّة على شرفة واسعة، حيث احتفظت حنان وأنور بكتب كثيرة، مختلفة الأنواع والأحجام.

بدأت عليا تعبث بالكتب عند تنظيف المكتبة. ومع مرور الأيام، قرأت الكثير منها قبل أن ينتبه السيِّدان إلى أنَّ الخادمة التي تختفي في آخر النهار، كانت تقضم الكتب مثل فأرة، فمنعاها من البقاء في المكتبة، فلجأت إلى الحيلة، تحمل كتابًا تحت ثيابها، وتصعد به، وتقفل الباب عليها، وتلتهمه بفرح. ثم تعيده في الصباح، بالطريقة نفسها.

وصارت تكتب كل ما يحدث لها، وتحتفظ به في دفترها المخملي الذي سرقته من المكتبة نفسها؛ الدفتر نفسه الذي كانت تمرِّره على خدِّها، في الكثير من المساءات التي قضتها وحيدة تنتظر أمّها، وتفكِّر أنّ ملمس نعومته على خدِّها، شبيه بفرحها الذي يتصاعد من قلبها، وهي تلمح ابتسامة الأم الشاحبة.

وضعت الصورة الممزّقة داخل الجلد المخملي، وأخذت تحشو، كيفما اتفق، ما وصلت إليه يداها من أدوات الزينة التي جلبتها لها سيِّدتها من بيروت، وأثواب الشيفون الليليّة المطرّزة التي تملأ خزانتها. اكتشفت وهي تدفع بكل تلك الأشياء، أنَّها لا تملك سوى بنطلون من الجينز الأزرق، وقميص أبيض اللون. وعدا ذلك فكل الأثواب المحشوّة بها خزانتها، هي للنّوم أو للخدمة في المنزل.

وسط هذا الحمل الذي يثقلها، لم تكن حريصة على شيء، قدْرَ حرصها على الصورة المهترئة. كانت الصورة هي الدليل المادي الوحيد الذي يثبت أنَّها لم تولد يومًا من جنون الريح، وأنَّها انتمت ذات يوم إلى أسرة، رغم أنَّ حياتها كانت تعيش في عقلها بثبات عنيد.

تسترجع تفاصيل الصورة وقطعة الشوكولا، فتضغط أصابعها على الحقيبة. تتوقف. تنظر إلى الوراء، فتبدو النافذة

أصغر مما كانت عليه قبل قليل. تحمل حقيبتها في حضنها. تقعد تحت شجرة ملاصقة لسور رخامي. تفتح الحقيبة، وتقرِّر أن تستريح دقائق أخرى. ربما غيَّرت السيِّدة رأيها وفتحت نافذتها!

تعيد العبث بأغراضها. تنزع عن الصورة كل ما يحيط بها. تحملها بكفَّيها بعناية. الفجر ما يزال في أوله، والصورة بدت ملوّنة بأزرق رمادي وأصفر معتم، لكنَّها الصورة نفسها التي تحملها الآن بأصابع مرتجفة، وتنتظر معها أيّة حركة قد تظهر في نافذة مغلقة.

تتأمَّل وقفتها؛ مختبئة بين أسرتها. كانت ما تزال في الرابعة من العمر، سمراء، قاتمة، ترتدي سترة صوفيّة لا تستر سوى أجزاء من جسمها الصغير، تكشف الكوعين، وفي وسطها تنسلُّ الخيوط، فينفر بطن الصغيرة عليا، ولا يستره السروال البني الغامق، لأنَّه كان يبدو واسعًا على خصرها الضامر، ويكشف جانبًا منه، بينما تغطِّي الجزء الباقي أكوام اللحم الأخرى التي التصقت بها. الجميع في الصورة يحدِّقون في الكاميرا. عليا، إخوتها الخمسة، الأب، الأم. ومن ينظر إليهم سيرى دهشة علت وجوههم. تذكر عليا أنَّ تلك هي الصورة الوحيدة التي التقطت لعائلتها من قبل صحافية كانت تجول في الأزقّة، وتلتقط الصور، وتوزِّع الابتسامات وتشتري للأطفال الشوكولا.

هذه الذكرى لم تغب عنها في يوم من الأيام، ليس من أجل الشوكولا التي لم تذق طعمها، ولا بسبب الصورة، ولكن لأنَّها ما تزال تذكر الألم والضرب المبرح الذي تلقّته من والدها. عشية ذلك اليوم، لحق الأطفال بالصحافية، وضحكوا لها، واختبأوا في حجور أمهاتهم عندما اقتربت منهم، ونظرت كالبلهاء إلى كتل اللحم المكوَّمة بين أرجل النساء وفي أحضانهن، وإلى البطون المنتفخة.

كانت عليا تشدّ شعرها بإصبعها، وتفتل خصاله المجعّدة بحركة عصبيّة، وهي تحدِّق في شعر الصحافيّة الأصفر، وتقفز بين حين وآخر، محاولة تلمسه، فهذه المرّة الأولى التي ترى فيها شعر امرأة شقراء، لأنَّها لم تخرج من تلك الأزقّة، طوال سنيها الأربع. وفكَّرت في حينها أنَّ هذه الفتاة ستجلس بعد قليل، في بيت جارتهم التي تملك تلفزيونًا صغيراً، وستدخل إليه، وتتحوَّل إلى لعبة بلاستيكيّة، أو ربما إلى فيلم كرتون.

نظراتها الحادّة، والبياض الناصع المحيط بحدقتيها السوداوين، وبشرة وجهها المحروق، تعطيها منظر حيوان صغير متوحش. وكان الأطفال من حولها يخافون التحرُّش بها، خوفًا من الخدوش العميقة التي سترسمها على وجه أحدهم، عندما يتجرَّأ ويعتدي عليها.

في يوم الصورة الذي تذكره الآن، وحيدة في هذه الغبشة الصباحيّة الزرقاء، حصلت على كمية كبيرة من الشوكولا، وتحلّق حولها الكثير من الأطفال، وهم يحاولون الاستيلاء على نصيبها. كانت تنسلّ منهم، فيلحقون بها، وعندما أمسكوها، بدأ عراك لم يتوقف إلاّ بالضربات التي انهالت على رؤوسهم، من الأمّهات اللواتي حاولن تفريق المشاجرة، وهن يدعين على الشقراء التي نغّصت نهارهم. وعندما عادت عليا من العراك، كان الجميع قد داسوا الشوكولا بأرجلهم، وهم يتخاطفونها، ولم يحصل أيّ منهم على ما أراد. وتحوَّلت الشوكولا إلى سائل لزج زاد ملابسهم قذارة، وهم يمدون ألسنتهم ويمسحون أصابعهم الملوّثة بالقليل منها.

كان النهار قد انتهى، والأولاد تعبوا من الركض والقفز، وانسحب معظمهم خارج بيوتهم إلى المقبرة، ليدخِّنوا ما استطاعوا لمّه وسرقته من سجائر، أو بقايا السجائر، وأيّة فضلات يتركها الأحياء الذين يزورون موتاهم.

المقبرة مخبأ أسرار أولاد الحي، ومملكتهم التي تقاسموها بطريقتهم. سمحوا لبعض البنات بالتواجد أحيانًا، خاصة كاتمات الأسرار اللواتي يدخِّن مع الصبيان، ويتآمرن على أولاد الحارات الأخرى. وعليا كانت من البنات غير المؤتمنات على أسرار المقبرة؛ فهي لا تدخِّن بقايا السجائر، ولا تسمح للصبيان

بفرك مؤخرتها، ولا ترضى أن تنظف حول القبور، قبل أن يأتي الصبيان أصحاب المُلك، لذلك كان قسم كبير من صبيان الحارة، يكنُّون لها العداء، وقد وجدوا فرصة مناسبة للانقضاض عليها، وهي تهرب لاهثة بقطعة الشوكولا التي تبعثرت. تمدّ لسانها، وتلحس ما يمكن التقاطه من سائل الشوكولا الذي امتزج بالمخاط النازل إلى فمها، وتبلع ريقها، فلا تصل إلى طعم الحلاوة.. ولما كان الظلام يشتدّ حلكة في الحارات التي لا تضيئها إلاّ أنوار خافتة تنبعث من النوافذ الصغيرة، فقد خافت أغلب البنات واختفين، داخل بيوتهن.

كان هناك بنتان تساعدان عليا في خصوماتها الكثيرة مع الصبيان؛ الأولى أكبر من عليا بسنة، وتشبه فأرة بقامتها القصيرة، وأطرافها النحيلة، وبطنها المنفوخ، وأسنانها الناتئة. تمسك بيد عليا في الخصومات. تنطّ على ظهر الصبيان، وتعضّهم من مؤخراتهم. أما البنت الثانية فكانت طويلة، ولها كفّان تشبهان أكفّ الرجال الكبار. ورغم صغر سنها، فقد رافقت أختها الكبيرة للخدمة في البيوت، وكانت تعود، وهي تخبِّئ في عبّها الكثير من الأشياء الجميلة: السكاكر، الحلوى المطّاطة كما تسمِّيها، جنوداً من المطاط، فردة حذاء دمية، مشطًا ملوَّنًا للشعر، ورودًا بلاستيكية تسرقها من الصالونات الكبيرة التي تساعد أختها في تنظيفها، وتزيِّن بها نافذة بيتهم.

كانت البنتان تحيطان بجسد عليا مثل حبل ملفوف، تبصقان في وجوه الصبيان الذين يمدُّون أياديهم إلى الأسفل، ويرسمون إشارات بذيئة حول أفخاذ البنات، فيجنّ جنونهما، وتصرخان بمسبات أكثر بذاءة من حركات الصبيان. ومع ذلك، عندما سمعتا أصوات الرجال الغاضبين، هربتا، وتركتا عليا وحيدة في مواجهة الأولاد الذين تحلّقوا حولها، يريدون الاستيلاء على ما تخبِّئه في كفّها، وهي تواصل الهرب، وتنزلق في الأزقّة. وقبل أن تكتشف المكان الذي تنطّ وتدور فيه، كان الصبيان يعتلون ظهرها. أحدهم يشدّ شعرها، وآخر يعضها في يدها المضمومة، التي فتحتها بعد أن لوى الصبي الثالث ذراعها. وكانت المفاجأة كبيرة، عندما اكتشفوا بعد طول عذاب، أنَّها لا تحمل قطع الشوكولا، ولم يجدوا في كفّها المضمومة غير المذاق الحامض الذي خرجوا به، وهم يحاولون لحس باطن كفّها بألسنتهم. فصاروا يبصقون، ويركلونها ويسبونها. هدأت في البداية، واستسلمت لهم، وما إن ركضت بعيداً عنهم، حتى حرَّكت أصابعها باتجاه مؤخراتهم، وسبّت أمهاتهم، ولعنت المكان القذر الذي جاؤوا منه إلى الدنيا، وصارت تصيح: «رجل ابن رجل يلحق بي». وكانت هذه الجملة كافية لتثير جنون الصبيان الذين لحقوا بها، وتوعَّدوها، وهي تقفز بسرعة، يساعدها جسدها النحيل، الرشيق، ومعرفتها بانحناءات وتعاريج

الأزقّة في الهروب منهم. كانت تتَّجه إلى بيتها، لتصل برّ الأمان قبل أن يتمكَّنوا من الإمساك بها. ولم تنتبه إلى أنَّ أحد الصبيان قد سحبته أمّه من الطريق، وضربته وجرّته من يده ليدخل البيت، وبقي اثنان شعرا بالخوف، والظلمة تشتدّ، والقطط السوداء ذات العيون المضيئة، تتسلّق الجدران، والأضواء تغيب، فتصدر الريح أصواتًا بين الأزقّة الضيِّقة، تشبه صفير الأشباح. مع ذلك لم يكن التراجع واردًا، لأنَّ عليا كانت تلتفت إليهم بين وقت وآخر، وتشير بإصبعها إلى مؤخراتهم، وتغلي غضبًا، بعد أن حرمت من قطعة الشوكولا الغريبة، ذات الطعم الذي لم تذقه في حياتها.

قبل أن تصل إلى أول الزقاق المؤدِّي إلى الغرفة التي تسكنها مع أهلها، كانت أصوات أسقف التنك ترتفع، ومواء القطط يشتدّ، ومطر خفيف بدأ ينهمر، فتباطأت، وانتظرت أن يأتي أعداؤها. ولم يكن انتظارها طويلاً، فبعد لحظات، ظهر الصبيّان، ووقفا أمامها. كانت تلهث مثل جرو، وتضع يديها حول خصرها، وتنظر بتحدٍ إلى الصبيين اللذين يدوران حولها، وقد قرّرا التفنُّن في تعذيبها، لكنَّها فكَّرت بأمر واحد: كيف تصل إلى ظهر أحدهما، وتلتصق فيه، وتعضّه من رقبته. لقد رأت القطط تفعل ذلك، وجرّبت يومًا أن تفعل هذا مع الصبيان، ونجحت، وصار الصبيان بعد حركاتها تلك، يخافونها.

نطّت فوق ظهر أحدهما، بعد أن انسلّت من تحت رجليه، ومزَّقت قميصه، وغرزت أسنانها في رقبته، وبدأ الولد يصيح. أما الصبي الثاني فكان يشدّها من شعرها، لكنَّها التصقت بجسد الأول، وصارت جزءًا منه، وهو يزعق، وخرج الجيران، وذهلوا من منظر البنت الصغيرة المعلَّقة في رقبة الصبي. كانت تغمض عينيها، وتشدّ عظامها، وتلف وركها حول خصره، ولولا صراخ الرجال والنساء من حولها، خاصة أم الصبي التي صفعتها، لبقيت معلَّقة به. ورغم ذلك لم تفتح عينيها، لكنَّها قفزت فجأة، وأيقنت أنَّ الأمر تجاوز حدّه، بعد أن تدخَّل الكبار. وما كادت تبتعد، حتى كانت الأخبار سبقتها إلى بيتها، إذ نقلها أهالي الصبيان والجيران الذين دقّوا باب الغرفة الصغيرة، فارتجّت صفائح التنك فوق رؤوس أهل عليا.

ارتجفت عليا، واكتشفت أنَّها قد غفت. تطلَّعت نحو الأفق. لم تكن سوى غيوم تجاهد الشمس كي تشرق من تحتها. وفي الجهة المقابلة، غيرَ بعيد من السور الذي استندت إليه، كانت النافذة ما تزال مغلقة. نظرت مليًّا في الصورة وتنهّدت، دسّتها في الحقيبة وأعادت إغلاقها. عاد الشعور بالبرد يصكّ أسنانها. قامت، وحملت حقيبتها وتابعت سيرها.

* * *

إنَّه خط الضوء النازل من المرآة إلى أرضية الحجرة، يفرشها بصور صغيرة، كل منها ترسل خطًا مائلاً من الضوء. تتحوَّل حزم الضوء إلى وجوه مختلفة حول سرير حنان، تبحث بينها عن وجه عليا، تحاول استعادة رائحتها التي بدأت تتسرَّب من فضاء المكان. كيف كانت عليا؟ هل تذكر التماعة عينيها الأولى؟ هل تحفظ أكثر من نظراتها الخائفة؟

هل كان ذلك منذ زمن بعيد، عندما خفق قلبها لتلكم العينين؟

عصر يوم خريفي أحمر، وبعد أن دخلت عليا البناء المؤلَّف من طابق واحد، في حي المهاجرين، قبل هذه الليلة بسبع سنوات، كانت حنان الهاشمي تجلس على كنبة خمرية اللون، مطرَّزة بخيوط ذهبية شبيهة بالبروكار الدمشقي. شفتاها ترتجفان، وهي تحاول الإصغاء إلى الرجل الأسمر الذي كان يمسك

عليا من يدها، ويحدِّثها بصوت خشن وذليل، عن اتفاقهما قبل أيام على الهاتف.

- **ست حنان، لا أريد للبنت أن تخرج وحدها.**

قال جملته، وهو يشيح بوجهه، متلعثمًا. حنان تنظر إليه. تنوس عيناها، وتذبلان قليلاً ثم تفتحهما على اتساع مفاجئ، وتحدِّق في الصغيرة.

- **الحجاب**. يقول الأب، وهو يشير إلى رأس عليا.

تنظر السيِّدة إلى الطفلة، وتكتشف أنَّها تلفّ رأسها بخرقة صفراء باهتة، وتثبِّتها بدبوس زهري، عند طرف أذنها.

ـ لا أريدها أن تنزع غطاء رأسها خارج بيتك.

تومئ السيِّدة بالموافقة، قبل أن تخرج من الصالة الفسيحة، المزيَّنة برسوم من الزجاج المعشّق بالصدف. سوف تذكر توصياته باستغراب شديد عندما تمرّ سنوات، ولا يظهر، هو أو أحد من أفراد عائلة عليا. وسيكون استغرابها أكبر، عندما لا تأتي عليا على ذكر عائلتها. حتى عندما حاولت سؤالها عن أمّها، وكرَّرت ذلك على مدى سنوات طويلة، كانت الصغيرة تردّ بهزّة من رأسها، أو بإطراقة.

في ذلك العصر الخريفي الأحمر، عندما كان الأب واقفًا، يلقي بتعليماته حول حجاب ابنته، انصرفت حنان فجأة، وتركته

مع ابنته في الصالة التي انتظرت أن يختفي من أمامها، لتكتشف المجهول الذي أراده لها القدر، بينما صورة أمها باكية، تناوشها، لقد فضّلت في تلك اللحظات، أيّ شيء على البقاء قرب هذا الرجل الذي يظهر كل فترة في البيت، ويأخذ ثمن طعامها وطعام أخوتها، والذي قتل أختها وسيقتلها يومًا ما بالتأكيد.

لم تعرف أنَّ السيِّدة التي تحدَّثت بازدراء واضح، ستمنعها حتى من الخروج وحدها، وستقرِّر لها حياتها كما تشاء. والسيِّدة التي تركت الأب المتوحش، كما سمَّته عندما دخلت إلى غرفة زوجها، وأخبرته أنَّ الخادمة وصلت مع أبيها، وسحبت من الخزانة الحديديّة المركونة في عمق الغرفة، مبلغًا كبيرًا من المال، كانت تشعر بارتباك شديد، وهي تتمعَّن في وجه الطفلة المحاط بالأصفر الرملي، الوجه الكحلي الذي تحوَّل بعد أسبوع واحد إلى لون خمري مشتعل، وتفكِّر أنَّ عليها تدريبها، لتحمل أعباء الفيلا الجديدة، التي ستنتقل إليها مع زوجها.

كانت حنان مرتبكة، وأصابعها ترتجف، وهي تلاحظ لامبالاة زوجها، ثم انسحبت من غرفته، تخبِّط بشدّة على الأرض، وتعرف كما عرفت في كل لحظات حياتها التي عاشتها قربه، أنَّه يشبه تمساحًا. صوته فقط، كان الأثر الآدمي الوحيد الذي لم تستطع يومًا أن تجد له شبيهًا حيوانيًّا. كان أشبه بصوت طفل ناعم وخجول. يكاد لا يُسمع.

حدَّثته عن الخادمة، وانتظرت صوته، لتهدأ كعادتها، لكنَّه صمت، فعاد شكله القبيح إلى سابق عهده. خرجت إلى الصالة. سلّمت الأب مظروفًا، فوقف باستعداد، وبدأ يعدّ النقود. عليا تراقب وجهه، والسيّدة تنتظر خروجه، وهو يبلّ إصبعه بطرف لسانه، ويأخذ نفسًا عميقًا، ثم يعاود الكرّة، ويقلب الأوراق النقديّة.

الرجل العجوز الذي أتى بكوبي عصير، ينظر إليه بفضول، ويشعر باشمئزاز من أظافره السوداء، ثم ينظر إلى الطفلة، وينظر إلى سيِّدته التي فهمت مغزى نظراته، وفكَّرت كم عليها من الوقت لترتيب حياتها الجديدة مع هذه البنت التي كانت مشغولة بتأمُّل التحف واللوحات، وأثاث البيت الغريب الذي يعود لأكثر من نصف قرن.

أنهى الأب عدّ نقوده، وصافح السيِّدة باحترام وانحناء، وانحنى أكثر ليقبِّل ابنته التي انتفضت وابتعدت هاربة منه، إنَّه يقبِّلها للمرّة الأولى منذ ولادتها. المرة الأولى والأخيرة، لأنَّ السيِّدة التي سمحت للرجل بزيارة ابنته كل فترة، هو والعائلة، لم تعرف أنَّه لن يعود إلى بيت العائلة، وأنَّه سيختفي عن الأنظار، وأنَّ أمها تجهل أين تسكن ابنتها، وأين ذهب بها الأب، ولن تفهم لماذا اختفى فجأة.

كانت عليا ضائعة بين الخادم العجوز والسيِّدة. تراقب والدها الذي اختفى كبرق. تلمس جبينها، وتشعر أنَّ نجمة تلمع بين أصابعها، كانت سعيدة، وهي تتحسَّس قبلة الأب اليتيمة التي أضاءت عينيها، لوهلة، بلمعان مفاجئ، لمحته السيِّدة وهي تقترب.

وتستطيع أن تتذكَّر الآن، وهي مرمية بين صور المرآة، الالتماعة الأولى لعيني عليا، في تلك اللحظة، اللحظة التي كانت فيها سيِّدة تعاين خادمتها الجديدة.

الغطاء الأصفر الذي يلفّ رأس عليا كان مصدر جاذبيّتها الثاني. تقترب منها، وتحاول معرفة ما تضعه خادمتها على رأسها. فقد بدت تلك الخطوط الحمراء الباهتة كآثار دماء، لكنَّها عندما اقتربت أكثر، اكتشفت أنَّها أثار خيوط قديمة، وشمَّت رائحة نفّاذة، عطرة. كانت تلك رائحة غسيل الأم، فتوقفت، ومرَّرت أصابعها على رأس الصغيرة، وانحنت، ثم أخذت وضعية الجلوس، وانثنت على ركبتيها، وهي تحدِّق بعينيها السوداوين. عليا تحدِّق بثبَات، قلبها يرتجف، ولم ترمش أبدًا. أرادت أن تعرف أين هي؟ وما الذي ينتظرها؟ لذلك حدَّقت بقوّة في سيِّدتها. والسيِّدة التي اكتشفت وجه الصغيرة المنحوت بدقّة وجمال أكثر مما يحتاجه وجه خادمة، شعرت

بسعادة طافحة، فالخادمات يملكن نظرات متشابهة، نظرات تتراوح بين الحزن البليد والأسى الصبور. أما خدودهن التي لا تشبه خدّيْ عليا المرتفعين، فعلى الأغلب، كما فكّرت السيِّدة، هي خدود منفوخة وحمراء للواتي يطبخن، أو مترهِّلة وشاحبة للواتي يلمِّعن البيوت. وجه عليا يشبه إلى حدّ كبير وجه فهد أسود. ولولا نظرات الشرود والحزن التي لاحت بين نظرة وأخرى، لشعرت حنان الهاشمي بالخوف، وهي تدور حول الصغيرة، وتتفحّصها من رأسها حتى أخمص قدميها.

مدَّت يدها نحو رأسها، ونزعت الغطاء دون أن تفك الدبّوس الزهري، فخدش خدّها، وظهر شعرها الخشن المشدود بقوة في ضفيرة قصيرة، تكاد لا تلامس ظهرها. أما الدبّوس الزهري، فترك مكانه خطًا أحمر لامعًا، سرعان ما نفرت منه نقطة من الدم القاني. تسمّرت عليا، ولم تنبس بحرف. كانت تدرك أنَّ عليها إرضاء السيِّدة التي دفعت لعائلتها الكثير من النقود، وكل ما عليها فعله هو أمر بسيط: الطاعة.

تفكِّر عليا بالطاعة فقط. تتخيَّل أنَّ أمها لن تذهب بعد هذه اللحظات، إلى الخدمة في بيوت الناس، وأخواتها سيشترون الثياب الجميلة، وهي هنا فقط من أجلهم، وكل ما سيحدث لها بعد ذلك، سيكون سهلاً. لذلك لم ترفع يدها وتحاول رؤية

السائل الحار الذي أحسّت بلزوجته على خدها، ولم يتغضَّن وجهها بأيّ تعبير. رمشت قليلاً بعينيها، عندما انحنت السيِّدة على وجهها ومسحت الدم بمنديل مطرَّز.

- **لم أقصد.**

قالت السيِّدة بصوت مبحوح، وهي تنظِّف وجه عليا، وتعقِّم الجرح الخفيف الذي ترك علامة واضحة على الخد: لم أقصد فعلاً. تحدِّث نفسها بعتب، وتنتظر إجابة من الصغيرة التي لم تهمس بحرف. فقط، أمسكت بغطاء الرأس، وحاولت إعادته إلى مكانه.

- **لن يزعجك أن تنزعيه داخل البيت.**

نظرت عليا إلى السيّدة باستغراب، فهي لم تعتد الظهور سافرة أمام الغرباء، لأنَّ ذلك كفيل بحرقها في نار جهنم. والسيِّدة نفسها كانت تضع حجابًا مزركشًا، ومع ذلك لم تبدِ عليا أيّ ردّة فعل، حيال كلام السيِّدة، واكتفت بإنزال يدها والحجاب، والإيماء بالموافقة. سحبت السيِّدة الغطاء، ورمته جانبًا، ثم أمسكت الصغيرة، واستغربت لوهلة، حرارة كفّها، وقالت: تعالي سأريكِ غرفتكِ.. سنبقى هنا لأيام، ثم تحصلين على غرفة أجمل منها بكثير. وكانت تقصد الفيلا، والغرفة الملوَّنة التي أعدَّتها للضيوف. حينها لم تصدِّق نفسها، كيف

فكَّرت أن تمنح غرفة ضيوفها بهذه البساطة. كيف قرَّرت ذلك؟ ولماذا انتقلت حرارة كف الصغيرة إلى جسدها؟ ربما هي الشفقة كانت تفكِّر بينها وبين نفسها، فهذه البنت ليست في النهاية أكثر من خادمة!

أخذت تستعيد الالتماعة الأولى، وكيف أمسكت بيد الصغيرة، وشعرت أن ما بقي لها الآن هو كابوس الضوء المائل. وربما تعيش أيامها خاوية، إن لم يُدقّ الباب بعد قليل، وتدخل خادمتها السمراء التي كانت، في اللحظة نفسها، تنظر إلى النافذة المغلقة للمرة الأخيرة، وهي تقوم عن السور الرخامي، وتدسّ الصورة في حقيبتها، قبل أن تختفي مع الريح.

توقّفت الصور عن الرقص في غرفة حنان الهاشمي ذات النافذة المغلقة. وتأكَّدت أنَّ خط الضوء المائل لم يكن حلمًا. فكَّرت الاتصال بنازك، لكنَّ الوقت ما يزال مبكرًا. وربما تثير فضيحة. ماذا ستقول لها؟ لكنَّها تريدها الآن.

أمسكت هاتفها النقّال. رنّت. لم تسمع ردًّا، شتمتها في سرّها، ورمت نفسها على السرير، وهي تفكِّر أنَّ الموت يلاحقها من جديد. تجد نفسها في غرفتها وحيدة تمامًا كما حدث منذ سنوات طويلة، بعد قرار العائلة أن تتزوَّج فجأة من ابن عمها. تفكِّر أنَّها تشبه نفسها في ذلك الزمن.

قبل عشرين سنة، ربما أكثر؟! كانت حينها تجد الأعذار لتبقى في غرفتها، أو تذهب إلى الجامعة، أو تفعل أيّ شيء يجعلها بمنأى عن الجلوس قرب الأم والعائلة، هربًا من الحديث الممل عن جمال البنت الرائع، وعن حظها التعيس في الزواج من رجل عاقر، وعن اجتهادها في إكمال دراستها بعد الزواج، وعن...

كانت تتمنّى أن يزور الموت البيت، ويرحل بصحبة أحد ما؛ فالموت هو الحلّ الوحيد القادر على جعل حياتها أقل تعاسة. إذا ذهب الزوج ستكون ممتنَّة للّه، لكنَّ الزوج لم يذهب. مات الأب، وانتظرت أمها سنوات طويلة حتى ماتت ذات شتاء.

عليا هي الإنسان الوحيد الذي لم تتخيَّل موته، لكنَّها ترحل الآن، وتموت من حياتها!

تصرخ حنان الهاشمي. تنظر إلى النافذة، تهمّ بالنهوض، وإزاحة الستارة. تقرِّر أن تبقى ساكنة. هي ميتة الآن!! ترتاح لهذا الخاطر.

كان لحنان، جسدُ غلام، ولم يتغيَّر حتى هذه اللحظة التي تستلقي فيها على سريرها، كميتة. صدر صغير، خصر نحيل، وردفا صبي في العاشرة، بلا تكوُّر أو استدارة، وشفتان رقيقتان. عندما حاول زوجها في إحدى المرات تقبيلها، صرخت من الألم،

وبقيت في غرفتها أياماً خجلى من شفتها. قالت لأمها بعد ذلك بأيام إنّ زوجها كان يريد أن يبتلعها من شفتيها!

كانت تخبر الأم بأدقّ التفاصيل حميميةً، في فراش زوجها. وإن لم تفعل، فستجد الأم طريقها إليها، نادمة على أنّها لم تعلِّم ابنتها فنون الفراش، كما تفعل نساء الشام مع بناتهن عادة، للحفاظ على أزواجهن، وجرّهم إلى متعة الليل. وحين بدأت تعلّمها تلك الفنون، كان الأوان قد فات. وأيّ تعليمات جديدة تجعل حنان أكثر ذهولاً وبروداً. هل تستطيع أن تجرّ زوجها إلى فراشها؟ وكيف ستجرّه؟ لماذا وقفت أمام أمها بكراهية، وهي تعلِّمها الذي يتوجَّب عليها أن تفعله: أن ترغب ولا تمانع، أن تمانع ولا تتمنّع، أن تتدلَّل حتى يذوب الرجل من الرغبة، أن تداعبه برقه وتجعله تاج رأسها، تمسح قدميه وتفرك جسده بالزيوت التي تأتي أمها بها من سوق العطّارين، ثم تلقّمه الطعام لقمة، لقمة. وهذا ليس دائماً، هناك شدّ وإرخاء. شعرة صغيرة يجب أن لا تنقطع. الكثير من الدلال والحزم معاً، لحظات كافية لجعل قلب الرجل يشتعل. وقلب الرجل بين منطقتين، لا يضخّ الدم إلا من بين فخذيه، قبل أن يتوزَّع إلى باقي جسده تقول لها أمها. وكانت حنان تصاب بنوبات من الضحك، عندما تتأكّد أنّ أمها لا تفهم في العلوم شيئاً، فتخبرها أنّ القلب هو ما يضخّ الدم، فتنظر الأم إلى ابنتها، وتتمتم:

- **بلهاء.. بل من تحت.. وهنا مربط الفرس يا شاطرة.**

ولم تكن الأم تتوقَّف حتى تغفو ابنتها في سريرها، فتنصرف محبطة من بنت بلهاء، لا تشبه أمها.

تغمض حنان عينيها على تلك الجملة:

- **بلهاء، لا تشبه أمها.**

تحرِّك يديها أمام وجهها، وكأنَّها تنفض الغبار. تقفز ثانية، تفتح النافذة، تنظر في الأفق الذي بدا أكثر وضوحاً مع تسلُّل الفجر، تلمح خيالاً واهياً لكائن يتحرَّك ببطء وتثاقل. كائن يشبه نقطة سوداء.

ـ هل هي عليا؟

تسأل نفسها. تسمع صوتها، وتعود إلى مرآتها لتكتشف إلى أيّ حدّ كانت تهذي.

* * *

تمشي ببطء، ليس فقط لأنَّ الحقيبة تغالبها، بل لأنَّها تتمنّى أن تظلّ سائرة هكذا، ولا تصل إلى أيّ مكان. كانت خائفة من اختفاء أسرتها ومن وجودها بالقدر نفسه!

لماذا انقطعت أخبارهم كل هذه السنوات؟ ماذا يمكن أن يكون حدث لهم؟ يصيبها الرعب، وهي تتصوّر حريقًا نشب وأتى عليهم جميعًا. وفجأة تبتهج من داخلها، بأمل يراودها في أن يكون أبوها قد لقى حتفه وحده، ولم تعرف أمها أو أيّ من أخوتها الطريق إلى فيلا حنان وأنور. وكما ابتهجت فجأة، اغتمَّت فجأة، لأنَّ هذا الجبار لا يمكن للموت أن يقترب منه. ربما اختفى مع امرأة، وربما لم يعرف الطريق إلى الفيلا، حيث تركها للسيِّدة في البيت القديم، وعدَّ رزمة النقود مرتين، وانصرف.

المشي باتجاه البيت، أعاد إليها إحساس ذلك اليوم، يوم الصورة التي استقرّت في حقيبتها. كان ينتظرها في البيت، بعد مشاجرتها مع الصبيان. مشت ببطء تحت المطر، كما تمشي الآن،

كأنَّها تؤجِّل مواجهته. لكنَّ الزمن يمشي، والطريق إلى الغرفة قصير، ولا بد لها أن تدخل إلى المكان الذي تنام فيه.

عندما وصلت إلى باب الغرفة الذي يصفِّق بقوة، استغربت أن تتركه الأم هكذا، يسرّب الدفء الذي تصنعه أنفاسهم. ولم تعرف أنَّ هذه كانت أوامر الأب المتمدِّد على حصيرته كالعادة، ينفث دخان سيجاره البلدي، وينتظر بحنق، وصول ابنته العفريتة.

لم يكن يرتدي سوى قميص رقيق، وسروال من الجينز الكحلي. كان قد تعوَّد في ذلك الوقت أن يفتل شاربيه بعناية، ثم يحمل مرآة صغيرة، يحدِّق فيها، ويتمتم: راح الشباب.. ضاع الشباب، ويدعو على زوجته التي ورَّطته بالزواج بها.

تفكِّر كيف سيكون شكله الآن؟ هل تغيَّر كثيرًا؟ هل سيعرفها ؟ ماذا ستقول له؟ طردتها سيِّدتها! لماذا طردتها؟

رجل أسمر، ذو جاذبيّة غريبة. لونه مثل قهوة شقراء، وصوته أجشّ. كل نساء الحي يحسدن الزوجة عليه، خاصة بعدما خرج في الليلة المشؤومة ودفع بشيئه أمام أعينهن.

ـ كبير، ويحتاج لأربعة نساء!

كنّ يمازحن الأم منذ رأين عضوه، يحسدنها وهن يرينها تعرّج في الصباح، عندما يتحلّقن حول الحافلة، لينتشرن في جهات دمشق، يخدمن في البيوت. والأم لم تعر تعليقاتهن

انتباهًا. كانت تدور في مكان ضيِّق، مكان متاح لها؛ بين إرضاء زوجها العاطل عن العمل أغلب الأيام، والاهتمام بمخدوميها، والأولاد الشياطين الذين كانوا يجعلونها تركض وراءهم آخر الليل، لتلمّهم من الأزقة.

ورغم أنَّها كانت تقوم بالخدمة في بيوت الناس، منذ أن تزوَّجته، ومنذ أن شعرت أنَّه لا سبيل إلى الراحة مع رجل ينزع الشعر بين فخذيه، بملقط الشعر الذي تنزع به حواجبها، ويضاجعها كل يوم أكثر من مرة، كانت تقول لجاراتها: إنَّه لا يشبع، في نوع من الشكوى الحقيقية الممزوجة بالتباهي.

كان يوقظها في منتصف الليل، وهي خائرة القوى من عمل النهار، يجرّها من يدها، خائفًا من استيقاظ الأولاد. كان يفعلها قبلاً قرب فراشهم، حتى صارت بناته يروين للجارات ما يفعل أبوهنّ ليلاً، وعليا أكثرهن ثرثرة، فأصبح أكثر حذرًا، وصار يجرّها من يدها، وهي نصف نائمة، ويدخلها إلى الحمام الصغير، الحمام الذي هو مطبخ أيضًا، والذي بالكاد يتّسع لوقوف شخصين، يجعلها تقعي على ركبتيها، ويمتطيها لدقائق، ثم يخرج مسرعًا. كانت تبكي في أغلب الأحيان، ومع الوقت اعتادت ما يفعله، فصارت تتحرَّك دون أن يطلب منها أيّ شيء. تخلع ثيابها، تسكن تحته. وعندما ينزل عنها تغتسل سريعًا، ولا تنظر في وجهه، وتعود بسرعة إلى فرشتها، وتغطّ في نوم عميق.

في الصباح كانت تلمِّح له أن ظهرها يؤلمها، وتريد استراحة منه ليوم واحد. وكان لا ينظر في عينيها، ويجيبها: المرأة لا تدخل الجنّة إذا لم تلبِّ زوجها في الفراش، فتهزّ رأسها: وأين الفراش؟ فيصمت، فتتجرَّأ أكثر ويعلو صوتها: ليس كل يوم، ظهري يؤلمني من العمل طوال النهار. لكنَّه لا ينظر إليها. وفي الليل يفعل ما فعله في الليل الفائت. ويخبرها بأنَّه إن لم يفعل ذلك معها كل يوم، فسيفعلها مع إحدى العاهرات. وكانت تبكي عندما يهدِّدها بذلك، ليس غيرة عليه، بل خوفًا من أن يأخذ ثمن طعام الأطفال ويذهب إلى عاهرة.. تصمت، وتخرج إلى عملها، ويبقى هو في البيت مع أولاده الذين يبذلون كل ما يستطيعون لإرضائه. ورغم أنَّها كانت تقوم بإدارة البيت، وإعالة الأسرة، إلا أنَّها كانت تترك له قيادة الأمور، كرجل وسيِّد حقيقي. لذلك، عندما طلب منها أن تترك الباب مفتوحًا، صمتت، وهي تلمح غضبه، وقرَّرت عدم التدخُّل في طريقة معاقبته لابنته. في النهاية، هو رجل البيت وهو أبوها، وعلى البنات أن يجدن أمامهن من يقوم بتربيتهن، كما تردِّد لنفسها. وتفضِّل بقاءه في البيت، ليس فقط لأنَّها تحبّه، فقد رحل الحب مبكرًا، لكنَّها كانت تسير وفق المثل الذي علَّمتها إيّاه أمها «ظلّ رجل ولا ظلّ حيطة».

* * *

تبرطم عليا في طريقها الترابي، وتجاهد لجرّ حقيبتها، وتحاول اختراق ستائر نافذة حنان الهاشمي المغلقة. ترفع صوتها عاليًا بسخرية: «ظِلّ رجل ولا ظِلّ حيطة» تسمع وقع كلمات أمّها في الخلاء، فيزداد غضبها، وتعود بذاكرتها إلى حيّ الرمل، عندما دخلت البيت، ووجدت الباب مفتوحًا، وأباها ما يزال ممدَّدًا على الأرض. دخلت بثيابها الممزَّقة، تلحس مخاطها، تمسح دموعها، فترسم على خديها خطوطًا من الشوكولا. تشعر بالبرد، وجسمها يزرقُّ، بعد أن توقَّفت عن الحركة. تنفُّسها يشبه البكاء. تبكي وتلهث وكأنَّها على حافة هاوية. تحدِّق في أمّها التي أظهرت لامبالاة متعمَّدة. فهي تعرف أنَّها لو حضنتها كما تشتهي، فستثير حنق الأب الذي لم ينتظر طويلاً. أمسكها من شعرها ودفعها داخل الغرفة، وركلها، وهو يدعو بالموت على أمها بنت القحبة التي تلد له البنات. والأم التي راحت تتوسَّل إليه أن يترك البنت، تعضّ شفتيها بقسوة، كلَّما وصفها بابنة القحبة، وتردِّد بصوت لا يكاد يُسمع: أنا من يجلب الطعام.

كانت عليا تجهل جنون الأب ذاك، وما يدفعه لمحاولة قتل أطفاله، عند أول ثورة غضب منه. تشعر بالرعب عند أول لكمة، أو عند أول ارتطام لجسدها بقدم الأب الضخمة، لكنّها بعد ذلك تفقد الوعي، ولا تصحو إلا بعد ساعات، وآلام شديدة تغطّي جسدها. والأمر الذي كان يزيد جنون الأب، أنّ الأم تعاقبه على ضرب ابنتها بالامتناع عن الذهاب إلى العمل، لتعتني بصغيرتها، وتذرف الدموع طوال النهار، فيسب ويلعن ويشتم، مدركًا أنّ امرأته لن تعود بما يسدّ به البطون الجائعة التي تتحلّق حوله.

صورته هي نفسها، وكأنّه يخرج إليها قادمًا من الأفق البعيد، وهي تخبّط بكعب حذائها العالي. تتوقّف قليلاً. تدير رأسها. النافذة مغلقة. وصارت تبدو من بعيد، مثل نقطة سوداء معتّمة.

لم يعد لعليا من أمل سوى العودة إلى حيّ الرمل الذي يشكّل جزءًا من سوار يلتفّ حول دمشق، كأفعى تطوّق المدينة. وداخل هذا السور كانت المدينة تضيق، وتقف صامتة أمام زحف البيوت الإسمنتيّة. والتجمّعات الغريبة للبشر القادمين من كافة الجهات للبحث عن لقمة عيش.

ورغم الطائفيّة التي وسمت هذه التجمّعات الوليدة في العقود الأخيرة، من حي الرز إلى عشّ الورود ومخيّم جرمانا، إلا

أنّها تتشابه وتتشابك، وامتدّت عشوائيّاتها إلى قلب المدينة، كما حدث بين منطقة الدويلعة وجرمانا وباب توما. لكنّ حي الرمل الذي سكنت العائلة فيه، كان خليطًا غريبًا من الفقراء الذين هربوا بفقرهم المدقع إلى جنوب دمشق، وصنعوا غرفًا صغيرة من صفائح التنك والحجر الإسمنتي الرديء الصنع. فلسطينيون فقراء مع ذوي بشرة سوداء «غورانّيون» مع المعدمين الذين جاؤوا يومًا من الجبال الساحليّة، وتفرّقوا في مجموعات كبيرة، وعاشوا في أحياء بائسة أنشأها في الفوضى متنفّذون ومرتشون ومهرّبون، وضبّاط كبار اقتطعوا الضواحي القريبة وأطراف المدينة وأسكنوا فيها «جماعاتهم» بحيث شكّلت مجالات لنفوذهم و«غيتوات»، في تشكيل موزاييكي، لونه الموحّد الفاقة والبؤس. ومن أتوا من الأرياف البعيدة والقريبة، حالمين بحياة كريمة، تحوّلوا إلى مرتزقة وأزلام ورجال مخابرات ومهرّبين. والآخرون الذين لم يتحوّلوا إلى مرتزقة، ومنهم سكان حيّ الرمل، حوّلوا بناتهم إلى خادمات، كما فعلوا قبل أكثر من مائة سنة مضت، عندما رهنوا بناتهم لتجّار حلب، كخادمات، فيما تحوّل الآباء بدورهم بعد ذلك الزمن، إلى عمّال مياومة يفترشون ساحات دمشق العامّة، ويقومون بأيّ عمل يُطلب منهم. وسرعان ما اجتذب المكان فئة من طلاب الجامعات المعدمين الذين يسكنون بالعشرات، في غرف متلاصقة،

وعاهرات من ذوات الدرجة العاشرة اللواتي يتَّفقن مع سائقي سيارات الأجرة، لجلب زبائن الليل. كان المكان غريبًا حتى عن نفسه، ولم يجمع جيرانه وبيوته المتلاصقة إلى جانب بعضها بعضًا، أيُّ نوع من أنواع الحميمية، رغم أنَّهم استطاعوا دائمًا، سماع تأوهات رغباتهم وشهواتهم في الليل، حيث تتندَّر النسوة في الصباح، عن طبيعة الأصوات التي يقلِّدن فيها الحيوانات، وهنَّ يجلسن محشورات، أمام الأبواب، قبل أن يغادَر أغلبهن للعمل.

يشبه حيّ الرمل ساحة غريبة عن زمانها. كلّ شيء فيها يبدو مضحكًا مثل فيلم كرتون أو فيلم من أفلام الويسترن بالأبيض والأسود قاحل، ومغبرّ، وناء: النوافذ الزجاجيّة المغطاة بالكرتون، الأبواب الحديديّة الصدئة، الجدران من التنك والصفيح، الدكاكين الصغيرة الشبيهة بمغارات قطّاع طرق، البيوت التي تعلو فوق بيوت. كانت هذه البيوت نادرة الوجود، ربما لأنَّها مصنوعة بطريقة مبتكرة، حيث يقوم أصحابها بتثبيت أربعة قوائم حديد، يكسون جدرانها بقطع من الصفيح القاسي، ويربطونها بواسطة قليل من الإسمنت، فتمنع نفوذ الهواء، وتتحوَّل إلى جدران متينة، لولا قرقعة الريح في أيام الشتاء، أما السقف، فيثبت بالنوع نفسه من الصفيح القاسي، المدعم ببضعة كيلووات من الإسمنت أيضًا، ولم يكن من الضروري وجود

نافذة في الغرفة، الثقوب التي تظهر رغمًا عن كل الاحتياطات، كانت تفي بغرض التهوية. الثقوب نفسها التي تتحوَّل إلى حبال مطر في أيام الشتاء.

الطريقة الأخرى المبتكرة للعيش في غرف جانبيّة، كانت ببناء جدارين ملاصقين لغرفتين، وتغطيتهما بصفيحة، وتغطية الجدران الحجريّة الداخليّة بقطع قماش ملوَّنة، وتثبيتها بالإسمنت حتى تتحوَّل إلى جزء من الحائط، وفي النهاية لا يترتَّب على ساكني هذه الغرف، سوى أن يفترشوا حصيرًا، ويأتوا ببعض الأغطية، ليصير المكان جنَّة للعيش.

اللافت في حيّ الرمل، عيون الرجال الغارقة في السأم، رغم وجوه النساء الجميلات اللواتي يتبرَّجن بأحمر شفاه فاقع، ويتهادين بغنج قلق. لكنَّ حيّ الغبار والملل والغرابة، كفيل بتحويل تلك الألوان، المتفاوتة الحمرة على شفاه النساء، إلى لون معتم ورمادي، عندما يعرف الرجال في قرارة أنفسهم، أنَّ ذلك الغنج سينعم به أول زبون متعة تصادفه إحداهن. والأزقّة التي تفصل بين هذه الأبنية، كانت تتحوَّل في الغالب إلى فاصل لا يتجاوز نصف المتر، والعديد من نساء الحي اللواتي تنتفخ بطونهن كل سنة، يبقين في بيوتهن ويمتنعن عن الخروج في أشهر الحمل الأخيرة، لأنَّ بطن كل واحدة لا يستطيع النفاذ بين الجدران، أما وجود مسجد في الحي، فكان يضفي عليه طابعًا

أكثر غرابة، ويبدو بفخامته غريباً وسط القتامة المفزعة للبيوت. كان مبنيًّا بالإسمنت والحديد، ومزيَّنًا بحجارة الرخام. بناه أحد فاعلي الخير، حيث يجتمع رجال الحي مساء لفضِّ خلافاتهم، وتلقّي التبرُّعات التي تهبها الجمعيات الخيريّة. لم يكن إمام الجامع من أهل الحي. كان يسكن منطقة الميدان، وفي السنوات الأخيرة تحوَّل إلى وصي على كل من في الحيّ، ورغم أنَّه تجاوز الخمسين من عمره، ومتزوِّج من امرأتين، فقد تزوَّج فتاة ثالثة لا تتجاوز الخامسة عشرة، من فتيات حيِّ الرمل، بعد أن لمحها تخرج من البيت سافرة، عندما كان راجعًا من المسجد، فهبّت في جسده قشعريرة، وهو يحدِّق في ردفيها المتكورين.

ما يزال أهل الحي يذكرون أنَّ الكثير من الأمور تغيَّرت، بعد أن بنى رجل الخير لهم مسجدًا، واختلفت النساء بعد قدومه. وبعد أن جاء بالعديد من مُريديه ذوي اللحى الطويلة والسراويل الفضفاضة، صارت أغلب النساء يغطّين رؤوسهن، وهو يباركهنَّ في خطبه، أيام الجمع، ويطلب من الأخريات الانضمام إليهنَّ، ردًّا للرذيلة.

كان والد عليا يتردَّد إلى المسجد بشكل يومي، ويجد السلوى في ساحته، وتكون لديه الفرصة لسماع أخبار الحي، وما يتردَّد فيه من أقاويل. ومع ذلك، كان الرجال يتجنَّبونه، ويخافون نوبات غضبه، ويخشون على نسائهم منه، مع أنَّهم يرسلونهن

إلى الخدمة في بيوت الرجال العازبين، دون أدنى حرج. وكانوا مع ذلك، يحسدونه على زوجته الغورانيّة الجميلة؛ بقامتها الطويلة، وامتلائها الشهي، وعينيها السوداوين، وشفتيها المكتنزتين، وشعرها المتوهّج بالأحمر. كانوا يرونه غير جدير بها، وهم يسمعون صراخها النهاري عندما يضربها لأيّ سبب كان، وصراخها الليلي عندما يأخذها عنوة.

نزَّ عرق الخوف البارد، تحت ملابس عليا، ليزيد من إحساسها بالبرودة في هذا الصباح البارد، عندما لفحها هواء شاحنة. أيُّ شبه بين أبيها وبين الشاحنة؟! لعلَّها عاصفة الغبار التي كادت تقتلعها وتطوِّح بها بعيدًا، مثل عواصف أبيها التي لم يكن هناك من يتصدَّى لها.

تسمَّرت في مكانها، وهي تتذكَّر الليلة التي خرجت فيها أمها إلى الزقاق، وقد مزَّقت ثيابها وأخذت تولول.

أحداث تلك الليلة، كانت عليا تحفظها غيبًا، وتستطيع أن تسمع صوت أختها الكبيرة.

كانت الأخت عائدة من عملها في أحد مصانع الجوارب غير البعيد عن حارة الرمل، والكثير من هذه المصانع الصغيرة التي بُنيت حول دمشق، سُميت تجاوزًا بالمصانع، لكنَّها ورشات عمل خياطة، أو تطريز، وقودها نساء صغيرات في السن، يعملن

بأجور زهيدة، ويرضين بما يقدِّمه أصحاب العمل دون أيّ تأمين، لأنّهنَّ فضَّلن العمل من الصباح حتى المساء، على التسكُّع في شوارع دمشق، والبحث عن زبون متعة.

عليا الكبيرة كانت واحدة منهنّ، بعد أن حظيت بفرصة لم تحصل عليها الكثيرات، لأنَّها بالكاد، تفكّ الحرف. وقد عاشت أيامًا صعبة، تلحق أمها من بيت إلى بيت، تساعدها في التنظيف، وفي حمل الأغراض الثقيلة للسيِّدات الأنيقات. وإعداد القهوة والشاي، وتنظيف ورشة الخياطة، إلى أن أجادت الصنعة، وجلست وراء ماكينة خياطة. كانت جادة في كل ما تقوم به. تفكِّر أنَّ عليها الحصول على رضى ربّ عملها. وجعلت همَّها الوحيد، مساعدة الأم في تأمين أمور البيت. وفي كثير من الأوقات، تحلم بموت مفاجئ للأب. ففي موته راحة لها، ليس لأنَّه يستولي على كل ما يأتي إلى البيت من نقود فقط، لكن أيضًا لأنَّها ستضمن ألاّ ينتفخ بطن أمها كل سنة، وألاّ تزيد أعباء الحياة عليها. ونادراً ما فكَّرت بشراء ثوب جديد لها، أو انتظرت مغازلة أحد الشباب، عند خروجها اليومي من باب الغرفة إلى باب المصنع. كان هدوؤها ولامبالاتها يجعلان منها مثالاً وحلمًا لكل الشباب المتسكِّعين في الأزقّة. ومع ذلك، سمحت لصاحب المصنع مداعبة جسدها، دون أن تجعله يتمادى، خاصة عندما يمدّ يده إلى فخذيها، كانت تتركه ينزع

سرواله، ويقبل نهديها، لكنَّها لم تسمح له بالاقتراب من منطقة الخطر، المنطقة العميقة فيها، حيث تصبح عاراً على أهلها. هي تعرف بحسّ مطاردة الخطر، أن هناك خيطًا فاصلاً بين ممانعتها، والحفاظ على عملها.

كانت تفكِّر بترتيبات الشهر المقبل، عندما غسّلت وجهها من آثار لعابه على خديها، وأخفت نقودها في جيبها، متحفِّزة لادّخار القليل منها. ولم يخطر على بالها ما سيحدث عند عودتها، وما تزال في ثياب العمل، لم تنزع جواربها وغطاء رأسها، ترتعد من دخول مفاجئ للأب. وتعدّ مع أمها المنفوخة البطن تكاليف الولادة، وربما سوء حظها هو ما جعل الأب يدخل لحظة انتشرت الأوراق النقديّة على فراش الإسفنج الرقيق. لا، ليس حظ الأم، بل الأخت الكبيرة عليا.

دخل بهدوء وصمت في ليلة الشؤم تلك، وهو يراقب ابنته وزوجته تتمتمان، وتعدّان النقود. كان طويلاً ومحنيًا، وكثيراً ما كانت هذه الانحناءة تضفي عليه مسحة رومانسية، جعلت زوجته تقع في حبّه من النظرة الأولى. ليست الانحناءة الخفيفة فقط، بل شعره الناعم الأسود، وشواربه الكثة، وصوته الأشج، ونظراته الحادة. النظرات التي ورثتها عليا الصغيرة، بكلّ ما فيها من قسوة وقوّة وضعف. كان يعرف سطوته على امرأته، ويعرف أنَّه معشوقها، وأنَّه سيكون مُطاعًا كما يشتهي، ويعرف

أنَّ الأم ورّثت الطاعة لبناتها. كان سعيداً بحياته السهلة، كما يقول لنفسه، عكس ما يردِّد أمام عائلته. لكنَّه عندما دخل ورأى الأوراق النقديّة ملقاة على الفراش الإسفنجي، شعر أنَّ الأمور ستخرج عن سيطرته، وفكَّر أنّ يلقّن إناثه درسًا لن ينسينه، كما ردَّد لنفسه. حمحم، ودفع الباب على عتبة الغرفة، قبالة زوجته التي انتشر الرعب في أوصالها. أما عليا الكبيرة، فقد لملمت النقود بسرعة، وخبّأتها في عبّها، لأنَّها تعرف أنَّه سيأخذ كل ما تملكه آخر الشهر، ويغيب لأيام، ثم يعود خالي الوفاض، ويخبرهم أنَّ دوريّة الشرطة صادرت كل ما اشتراه من علب السجائر المهربة، وأنَّه لم يبع سيجارة واحدة.

عليا الكبيرة خائفة. أسنانها تقرط لسانها، والحروف تتلعثم على شفتيها الزرقاوين، وتحاول أن تتمسّك بالنقود، بينما كانت يداه مثل مخلبين يلتفّان حول فريسة ضعيفة.

دفنت وجهها في حضن أمها، بينما الأم تفكِّر بحماية بطنها المنتفخ؛ فقد اعتادت أن تُضرب في النهاية، لكنَّ غضب الأب، خيَّب ظنّها هذه المرّة. انقضّ على عليا الكبيرة، وأمسكها من شعرها الذي تحوَّل بين يديه إلى حبل لفّه حول أصابعه، وضرب بجسدها جدران الغرفة. ارتجّت الجدران وتساقطت النقود. صرخت الأم، وبطنها يرتجّ أمامها. صفعها، خرجت من الغرفة، دون غطاء رأس، ومزَّقت ثيابها بين الجيران، وهي تولول

وتصيح بالرجال لإنقاذ ابنتها التي فقدت وعيها. دخل بعض رجال الزقاق إلى الغرفة، وأمسكوه. دفعهم بشدة وأنزل سرواله، ودفع بشيئه أمامهم، وهو يقول لهم:

- ابن **امرأة يقترب حتى أطعمه.. هذا.**

حدَّقوا فيه غير مصدّقين ما رأوه، وانسحبوا، وعلامات الذهول تعلو وجوههم. أما النساء فقد حملقن مذهولات، قبل أن يركضن وراء أزواجهن.

كان من المحتمل، أن يدخل الغرفة، لو أن نظرات الأهالي كانت أقل حقداً واستهجانًا. وقف يرتجف غضبًا قبل أن يعود ويجمع النقود ويختفي. لم يعرف أنَّ زوجته نزفت حتى مات جنينها، وبقي لثلاثة أيام يجول في الطرقات، ولم يخطر في باله، أنَّ ابنته الكبرى ستقضي بقية عمرها القصير، طريحة الفراش، تنظِّفها الأم وتلفُّها بمناشف حول حوضها، كما فعلت وهي صغيرة، عندما كانت تنظفها من برازها وبولها، وتدعو إلى ربها أن تستيقظ في الصباح، فتجد أنَّ العليّ القادر استجاب لها، وقبض روح البنت، وأراحها من عذابها.

بعد ذلك الحادث بعام، ولدت عليا، وكانت تحمل اسمًا أخر، نسيته الأم بعد موت عليا الكبيرة، وصارت تناديها تيمنًا باسم الأخت الميِّتة، وأحاطتها برعاية فائقة. لم يحظ أيّ من

أولادها الخمسة بها، الأولاد الخمسة الذين بقي منهم ثلاثة بعد وقت قصير، عندما طوى المرض الآخرين.

أخذت عليا تتقدَّم في طريقها، بعيداً عن نافذة حنان وتتحوَّل إلى نقطة سوداء، تفكِّر أنَّها ستأخذ مكان الأخت الكبيرة، وتحلّ محلّها في مساعدة الأم. تسبّ سيِّدتها، وتبصق في كل خطوة تخطوها، ولم تعد تحتمل ثقل الحقيبة أو ثقل الذكرى، فجلست تجفِّف عرقها البارد، وهي تفكِّر متى ستنام نومة أختها بعد ثورة جديدة للأب، ومتى ستموت؟ ثم عادت للمشي ببطء وتثاقل، ولكن هذا لم يكن يعني أنَّها تنتظر نداء من حنان لاستعادتها، بل لأنَّها كانت لا ترغب في الوجهة التي عليها أن تمضي إليها. وفي الوقت نفسه، لا تعرف بديلاً لحي الرمل.

* * *

الصغيرة تدرك أنَّها استيقظت من الحلم، ولا سبيل إلى استعادته. والقدر خبَّأ الكثير أيضًا لحنان الوحيدة الآن، وسط سريرها، تقضم أصابعها ندمًا على اللحظة التي طردت فيها خادمتها.

تتساءل: من كانت عليا؟ خادمتها حقًّا؟ من هي؟ تعرف أنَّها كانت سيِّدة هذا المكان، ولا تذكر متى انقلبت الأدوار بينهما. متى كانت تأتي عليا بهيبتها الأميريّة، ومتى تخلع عنها هيبتها، وتعود كما هي؛ بنتًا هزيلة ببشرة سمراء محروقة.

في البداية، حاولت إظهار قسوة مبالغة أمام الخادمة المذعورة، وهي ترتِّب معها الأغراض، وترشدها على الطريقة الصحيحة للتصرُّف. كانت تقضي أوقاتًا طويلة خارج البيت. ولا تخطر على بالها العودة إلا لضرورة النوم. كيف جعلتها عليا أسيرة هذه الغرفة!

عاشت حنان حياتها بعد موت أمّها، بلا عائلة؛ فقد انتشر أعمامها في أنحاء العالم، في أميركا الشماليّة واللاتينيّة. هاجروا من سوريّة، وأخذوا كل ما تملكه العائلة من ثروات، وتبعثروا في جهات الأرض، وبقي من العائلة أخوان، يمتلكان بضعة محلات في البزورية، ومحلاً لبيع الملابس القطنيّة في سوق الحميديّة، وبضعة بيوت في «عين كرش» في منطقة الصالحيّة. وصارا بعد ذلك، من أكبر تجّار الشام. الأخ الكبير أنجب ولداً، وتوفيت زوجته، والأخ الصغير أنجب بنتًا واحدة فقط، وربّها كما لو كانت صبيّ العائلة الوحيد، ولم يتزوّج ثانية، بسبب حبّه لزوجته، وهواه الغريب على أفراد عائلته باردة المشاعر، التي كانت غير راضية عن تعلّق ابنها بزوجته.

كانت حنان تسمع، وهي لم تزل بعد صغيرة، عمّها يردّد أمام الجميع، أنَّ زوجة أخيه تحكمه ليل نهار، تحت السرير، وفوقه. وحنان آنذاك لم تكن تشعر بالاستياء من عمّها، لأنَّ أمّها ذات الطباع القاسية، والتي لم تضمّها إلى صدرها يومًا، كانت تملك موهبة فريدة في كسب نفور كل من حولها، خاصة حنان التي حلمت أن تكون صبيًّا. بالغت أمّها في تجاهل مشاعر أمومتها، معتقدة أنَّ هذا سيجعل منها شخصيّة استثنائيّة تفتخر بتربيتها، وتعوّضها عن ذَكَر يحمل اسم العائلة. ولم تخيّب

حنان ظنّ الجميع بها، كانت طفلة هادئة ومطيعة. وهذا السمت الهادئ الذي استطاعت الحفاظ عليه، رافقها مدى حياتها، لأنَّها استطاعت الإيحاء بذلك لعائلتها الصغيرة، لوقت طويل. عندما صارت ترافق ابن عمها إلى سهراته، كانت تبدو دائمًا مدهوشة من كلّ شيء، وحذرة في الوقت نفسه. تفكّر كيف تتحاشى ما يجعلها محط أنظار آخرين تخيّلتهم متحفزين أبداً لانتقادها أو للنيل منها. ظلّت تعيد بين شدقيها، كلمات أمّها. وحين كانوا يطرونها، ينظرون إليها بحب كبير، ويتباهون خفية وبين بعضهم، بتهذيبها وبهدوئها. كانت مستعدّة للصراخ حتى ينفجر قلبها في وجه أمّها. ولكنَّها لم تجرؤ على فعل ذلك أبداً.

كل ما يحيط بها مرتّب لدرجة مقيتة، وجاهز للتحرُّك ضمن خط مستقيم لا يحيد عنه. وفي أكثر لحظاتها حزنًا، لم تجرؤ على التصريح بانفعالاتها أمام العائلة. فهذا عيب ستكون مضطرّة للاعتذار عنه فيما بعد، وستُعاقب بحرمانها من الجلوس بينهم، لوقت طويل، ويقفل باب غرفتها عليها، بعد أن تسدل الستائر، ويمتنع الجميع عن توجيه الكلام إليها لمدة طويلة. كانوا يعاقبونها بالصمت والوحدة، فتشعر أنَّها ستجن، وتفضّل أن تعاقب مثل بنات الجيران، بالضرب، وهو الأمر الذي لم يكن وارداً عند عائلتها التي تعتبر هذا التصرف همجيًّا.. وحتى ابن عمها، كان يقاطعها، ويمتثل لأوامر العائلة.

لم تعرف بعد زواجها، كيف يمكن لها أن تبقى داخل حدود مرسومة، إلاّ بالطريقة التي تجعلها أكثر طاعة للآخرين، وأكثر هروبًا من البحث داخل روحها. ولم تشتك أبدًا من الإذلال الذي عاشته مع ابن عمها، حين كانت تشعر أنَّها تكاد تختنق تحته في الليالي، ثم يقوم عنها ويمضي إلى الحمام، ويعود متمتمًا بآيات قرآنيّة، طالبًا من اللّه أن يرزقه بولد يرث عائلته من بعده. ولو انتبهت قليلاً، إلى طفرات الشهوة التي تطفح به وتحوِّله إلى مهووس، فربما عرفت بعض السعادة، لكنَّها لم تهتم. ولم تشعر بقلق الزوجات، إن كان يخونها مع نساء أخريات.

ولم يكن هو بحاجة إلى قلقها. كان يستغفر ربّه على خيالاته، ويطلب منه مسامحته. لكنَّ ورعه ذاك لم يمنعه من الدخول في صفقات مشبوهة جعلت عالم حنان يختلف كليًّا عمّا عاشته في حياتها، وجعلت من أنور الهاشمي رجلاً لا يكتفي من تسجيل أملاك وأموال جديدة باسمه وباسم زوجته. كان يراقب حنان بعين رضى واستهانة، وكأنَّها ما تزال تلك الطفلة التي لم تكبر.

تفتح حنان عينيها وتتلمّس بطنها الذي لم ينجب وريثًا للعائلة. البطن الذي كانت تلعب فوقه عليا بأصابعها وشفتيها قبل ساعات. تتذكَّرها الآن وهي ممدَّدة على سريرها، تحاول معرفة من كانت عليا، ومن كانت هي؟ تتسرَّب رائحة القرفة ثانية،

فتغرق في نوبة جديدة من الحزن، وتغمض عينيها وتكوّر يديها حول صدرها. تحدِّق في النافذة، فترى عليا نقطة صغيرة تتضاءل. يهوي قلبها في يديها، وتلمح خيالات أنور في ليلتها الأولى، فينشف جلدها. تعود صورة عضوه المتهدِّل بين أصابع عليا، فتشعر بتقلُّصات حادّة في معدتها، وتركض إلى الحمّام، تفرغ ما في جوفها، وتجلس على أرض البورسلان، تتلمَّس برودتها، وتشعر بقليل من الهدوء.

ولحظة بعد لحظة، تستنفر حواسها، وهي تباغت نفسها متلبِّسة. يفترسها شوقها إلى عليا. ولم تزل غير مصدّقة رحيلها. تتأمَّل أصابعها على الأرض، فتشعر أنَّها بشعة بتجاعيد صارت واضحة. تتذكَّر ملمس أصابع عليا على وجهها، فتعاودها تقلُّصات المعدة.

كانت تلعب معها هنا على هذه الأرض الباردة. تستطيع سماع صوتها، يتهادى فوق رغوة الاستحمام، بينما عيناها تتابعان بفضول، ما تقوله:

● تعرفين؟ ما من متعة ألذّ من التي تمنحها أصابعك.

ما من احتراق يشبه رغبتك.. رغبتك من يقود أصابعها إلى مكامن وجعك؛ الوجع الذي يجري في الدمِ، تحت جلدك.

عندما تعتلين قمة تُشعرك بالاختناق، فجأة يبعث اللّه لك من ذاتك فَرجًا. الفَرج لا يأتي هكذا !! أبداً. يجب أن تخلقيه من عجينك، أنت فقط.

أنا أتحوَّل إلى هلام؛ أصير سرًّا. كل شيء يجب أن يكون سريًّا. السرّ هو طوق نجاة وحيد هنا.

لا تفتحي عينيك بوقاحة أمام الآخرين. ابتسمي. وليكن صوتك عذبًا. عليك أن تعيشي بسعادة. والسعادة هي أن تتحوَّلي إلى كرة زجاجية مغلقة، تنتشر في داخلها نثرات الثلج بكثافة. كيفما يحركها الآخرون، لا يستطيعون اكتشاف ما بداخلها. هذه هي القوّة. أن تكوني أنت منبع ونهاية ذاتك. لا أحد يجرؤ على الاقتراب من وجودك.هكذا. خطوة، خطوة، أنت تسبحين مع ذاتك، ربانك أصابعك، وعقلك منبع حواسك، ومهبط ارتعاشك.

تغضّ حنان نظرها عن أصابعها، تمسّد جسدها، تلقّن نفسها بصوت يكاد لا يكون مسموعاً:

- لا يوجد رجل قادر على إمتاعك كما تفعل أصابع ليِّنة، خارجة من قلبك، وليست خارجة من جسد رجل. استطالات دافئة. تتفتّح فيك، وتكبر، تمنحك ما خرج منك، وما لديك، وبذلك تكونين سيِّدة

نفسك. تعيد إليك أنوثتك في ارتعاشة، وتظلّين منتصبة، الأصابع مثل حروف واقفة، لا تنتهي، حروف تخرج من القاع، تطير في الهواء. تلامس بارتعاشها الفراغ، فتولّد لذة أبديّة. تبدأ وتنتهي في اللحظة نفسها. الأصابع مختلفة اللذات. أصابعك نحيلة وخشنة، لكنَّها جميلة. هل تعرفين أصابعي؟ تتجمّد أحيانًا. تتوقّف في وسط الأشياء، ولا تتابعها. لا تعرف الحركة. تنتهي في بداية حبي لها. هل أحببت أصابعك يومًا؟ الأصابع التي لا تنتهي بارتخاء مذل. في أيّ وقت تطلبينها، تأتي إليك. أصابعي تحب أن تمرّ عليك. أصابعي لا تحبّ شفتي، ولا تحبّ عيني. أصابعي! أكرهها. هي قادرة على إيذائي عندما تفلت منّي. أصابعي من رمل. لا تنظري إلى البياض، إنَّها محشوّة بالهواء، وعند أول ملمس تذوب. هشة. لا تشبه أصابعك الصلبة قطعة تمساحي الرخوة. عندما تكبرين ستجربين، كيف يمكن أن تكوني عزلاء في مهبّ المتعة! لم تجربي بعد أن تفوري وتنطفئي، دون أن تشعري بأعماقك تغلي. هل تعرفين التماسيح؟ لها أعضاء متهدِّلة وثقيلة، ورائحتها تشبه رائحة الموتى. هل رأيت وجه تمساحي؟ رأيته؟ لكنَّك لم تشمي

رائحته. ليست رائحة شيخوخته، إنّها رائحته، منذ اليوم الأول. كانت، ومازالت. هل جرّبت الاستلقاء تحت تمساح عجوز. تمساح من رغوة، من بصاق ولهاث ؟ أنا فعلت ذلك دائماً.. كنت تحت جلده، في منطقة مخيفة، حيث لا يبدو أمامك سوى الظلام، بين جلد التمساح وصوت تنفُّسه. قبل أن أكتشف أصابعي، نمت في بحيرة التمساح العجوز، قبل أن تقودني إلى القمة، وأنزع عنّي جلد السحليّة التي تنتظر رجلاً بلا دموع. التماسيح لا تبكي. شاخصة دائماً. هل تعرفين؟ لم يبك يوماً. وله رائحة الموتى الذين يمتصّون حياتك، وينهزمون مع حلول الليل إلى فراشهم. غطاء فراشه من المخمل. هل تصدّقين؟ كل التوابيت لها غطاء داخلي من المخمل. المخمل الأحمر. قسوة الموت لا تناسب نعومة المخمل. لماذا لا يغطّون التوابيت بالكتان ؟ أحب أصابعك. أُنظري كم تبدو واقفة! لا تعرفين أصابعك، وهي لا تعرفك. أما أنا فأعرف الأصابع. أحب أصابعك، وملمس بشرتك. لا أحب حراشف تمساحي. هل للتماسيح حراشف، أم إبر صغيرة تختبئ بين انثناءات الجلد؟ هل تلعبين معي قليلاً؟ أُنظري: الماء ساخن. الماء.. بلا لون. لونه

أبيض، أم لون حوض الحمام، أبيض وحارّ؟ أنت حلوة. أصابعك طويلة و... هل جربت أن تكون أصابعك ملاذك في وحدتك، وأنت صغيرة. لم يفهمني أحد. كنت ألوذ بأصابعي في بيت مسكون بالأرواح المتجهّمة والنوافذ العريضة. مسكون بكلّ شيء إلا الحياة. أنت لم تتعلّمي أن تحاوري جسدك، أنا سأعلّمك. ما تزالين صغيرة، لا تعرفين أين مكمن قوّتك. ولو كنت تعرفين لكبرت أسرع من ذلك. هل ستبقين طفلة إلى وقت طويل؟ متى ستكبرين؟ خرساء. أنت خرساء؟ أنت لم تتعلّمي الكلام؟ هذا أسوأ ما فيك، وهو أجمل ما فيك أيضاً. ستكونين جزءاً منّي. لا يمكنك فأنت من دم وعيونك خبيثة. لا بأس سأجعلك جزءاً من... أو حتى من... وربما ستجلسين أمامي على الكومدينو مثل دمية. لا تشبهين الدمية. ماذا تشبهين؟ لا أعرف. أنت لطيفة وناعمة ومطيعة مثل قطة. لست ناعمة. ستصيرين ناعمة.

كانت عليا خائفة منها ومذعورة، وهي تتفحّص جسمها بهدوء. تلعّب حنان أصابعها فوق الجسد الصغير، وتحرّكها أمام عينيها، مثل عازفة بيانو، تفتل يديها، تنظر إلى أصابعها

بشهوة. الصغيرة لم تفهم الكثير مما تقوله السيِّدة، لأنَّها كانت مشغولة بالدهشة، بعد أن وجدت نفسها في عالم مسحور. لم تكن تأبه لتلك الجلسات الطويلة في الحمَّام، عندما تقوم بفرك جسد سيِّدتها بالزيوت والصابون، كما تطلب منها. والطقس الذي تستغربه عليا أكثر من غيره، هو غليان إبريق الشاي النحاسي المزخرف، والموضوع فوق وعاء غريب. اكتشفت عليا فيما بعد، أنَّه يبثّ حرارة عبر الكهرباء، ويجعل الشاي يغلي بهدوء واستمرار. تثبِّته حنان فوق رفّ رخامي بالقرب من حوض الحمَّام، تملأه بعيدان القرفة، وتترك البخار ينتشر حولها، تستنشقه بشهيق وزفير منتظمين. وعندما يجفّ الماء داخل الإبريق، تزيده بماء إضافي، لكنَّها، في بداية كل مغطس ماء حارّ، تضع إلى جانب الإبريق، كأسًا زجاجيّة شفافةً، ذات حواف مذهَّبة. وهي كأس لم تر لها عليا مثيلاً، وأخبرتها حنان أنَّها كأس نادرة. كانت لجدّ جدّها، وهي تشرب شايها فيها منذ العاشرة من عمرها. تتذكَّر متعة الصغيرة، وهي ترشف معها الشاي من ذات الكأس. تضرب الأرضية البورسلين، فتؤلمها كفّها.

تصرخ: لن تعود!!!

* * *

لن أعود!

تضرب عليا بكعب حذائها الأرض، وهي تسبّ حنان بعبارات قذرة، وتحلم أن تنقضّ على ظهرها وتشطبها بسكينها، كما فعلت يومًا بصبيان الحارة، تسمع صوتها المبحوح يردِّد في الخلاء: بنت الكلب.. بنت الكلب.

تفتح عينيها بثبات، على الأفق الواسع الممتدّ أمامها. القصور الصغيرة صامتة. رائحة الصحراء تنعش قلبها، لكن حقيبتها ثقيلة. وبدأ جسدها ينحلّ من التعب. الليل لم يكن عاديًّا. السيِّدة والسيِّد ومن ثمَّ خط الضوء المائل، وخيالات حيّ الرمل، وأخيرًا عليا الكبيرة التي جملتها على بساط سحري الآن، ودفعتها نحو الأمام.

تشعر بوخز في رقبتها، فتنتبه إلى السلسلة الذهبيّة التي تطوّقها، تمدّ يدها وتتلمَّسها. هدية حنان. تطمئنّ أنَّ بمقدورها بيعها، وحمل بعض الأشياء إلى أخوتها وأمها. فليس من المعقول

أن تعود إليهم بعد سنوات طويلة، وهي لا تحمل بعض قطع الحلوى أو الفاكهة. صورة غرفة التنك تحتلّ مساحة عقلها بالكامل، وخيالات حياتها القادمة في حيّ الرمل، تستحوذ على تفكيرها، لم تكن تلك الخيالات فحسب، بل، صورة نافذة مغلقة، نخرت عقلها منذ قليل.

تتذكَّر كيف كانت هي وأخوتها يدوسون أقدام بعضهم، وهم يتحلَّقون في دائرة كاملة حول صحن كبير من الألمنيوم على الأرض، وسط الغرفة تمامًا. من الصعب تحديد أصابع من تمتد إلى الصحن، لأنَّ الأصابع كانت تتحرَّك بفوضى كاملة، وهي ترتفع وتدخل كهوفًا عميقة، كأنَّها لن تخرج أبدًا. ينحشرون ويتدافعون، أحيانًا بفرح وضحك، وأكثر الأحيان بسباب وشتائم. والأم تحدِّق فيهم من إحدى زوايا الغرفة، تراقب أيّ خطأ يقدم عليه أحدهم، عندما يدفع بأخيه أو أخته إلى الأمام أو الوراء. تتحاشى أن يحدث ما حصل في إحدى المرات، عندما اندفع رأس الأخ الصغير إلى الطبق وسقط فيه، فامتلأ وجهه بالطعام، واندلق الباقي على الحصير البلاستيكي، وحُرموا من العشاء.

عند النوم، يتراصون بطريقة خاصّة: يضع كل منهم ركبة على الأرض ويسند الأخرى بمرفقه، فيترك مجالاً أكبر لاستيعاب فرد من العائلة، خاصّة أيام الشتاء، فتشعر عليا أنَّها داخل علبة من الأشواك الناعمة. في الصيف يكون الأمر مختلفًا، البرد الشديد

يتحوَّل إلى حريق لاهب، وصفائح التنك في السقف والجدران، تشوي لحومهم، فينتشرون على الأرض، وينامون على الحصير البلاستيكي. فالفراش الإسفنجي يلهب الظهور، وحشراته تتحوَّل في الصيف إلى آلة تعذيب لا تتوقف عن الحركة والطنين، تحرمهم النوم إضافة إلى عضّات البعوض الذي يئز فوق الآذان.

كل الأمور تهون أمام البعوض الليلي الذي يمنع عنهم النوم، ويحوِّل وجوههم في الصباح، إلى هضاب حمراء صغيرة، هضاب يهرشونها ليل نهار، تنزّ دمًا، وتتحوَّل إلى بثور بنّية، فتضربهم الأم على أصابعهم. هناك أمر لم يفهموه، يحوِّلهم إلى مجانين، وهم يهرشون أجسامهم النحيلة. كانوا يهربون من البيت، يقفون في زوايا الأزقّة، ويهرشون مع أغلب أولاد الحي الذين يهربون من أمهاتهم، ويختارون زاوية بعيدة عن الأنظار، يحيون حفلات الهرش، ويعودون بوجوه مدماة وعيون مثقلة بالنعاس. كانت عليا تخاف من بقايا الدم على وجهها وفخذها، لأنَّ الأم ستوبخها لو رأت الثغرات التي تنخر جلدها، وستأتي بمواد غريبة ذات رائحة حادة وتفرك بها الثغرات الحمراء، فتصيبها بألم حادّ يجعلها ترفس وتقفز عن الأرض وتنط، فتثبِّتها الأم بشدّة وتبطحها أرضًا، ثم تلوِّن جسمها بالمادة الكريهة الرائحة.

تحاول أن ترفس الآن، وهي تخبِّط بكعب حذائها وتصرُّ بأسنانها: لن أعود.

ترفس الأرض، وتتوقّف. تضرب الحصى على جانب الطريق، وتشتم بصوت غير مفهوم. هكذا كان يرفسها أبوها في الليل، عندما يصدر أحدهم نأمة أو همهمة. التراب يثير الغبار من حولها، وصمت مطبق في المكان. تعطس، وتعاود نوبات الرفس، تضع حقيبتها جانبًا، وتفكِّر أنَّ من الطبيعي أن تكون النافذة مفتوحة الآن، تعاودها صور وجوه اخوتها، مذعورين ومحشورين إلى جانبها، وهم بالكاد يجدون ثغرة للتنفُّس، يحدِّقون بعيون لامعة كعيون القطط، ويخافون من تلك النظرات التي كانوا يبثّونها أثناء حفلات الرفس.

كانت عليا وأخوتها يختبئون من رفسات الأب ليلاً، تحت الأغطية الصوفية التي حاكتها الأم من بقايا الكنزات القديمة، التي تكرُّ خيوطها بمساعدة الأولاد في ليالي الشتاء، ثمَّ تعيد نسجها من جديد على شكل مربعات ملوَّنة. وبعد أن تنهي عدّة مربَّعات منها، تقوم بوصلها بواسطة خيوط صوفيّة سميكة، إلى أن تكبر القطعة وتتحوَّل إلى غطاء دافئ يغطِّي أجسادهم.

الغرفة الصغيرة في الداخل، كانوا يستخدمونها للطبخ والاستحمام وقضاء الحاجة. ثمّة حفرة سوداء محاطة بإسمنت أبيض، يتبولون فيها. وعند الباب، يضعون الأطباق فوق جرن حجري يستخدمونه لغسيل الصحون وأواني الطبخ. وفي الزاوية المقابلة، رأس كبير من الغاز يسخِّنون على ناره ماء استحمامهم

كل خميس. كان يوم الحمّام عقوبة لهم. لا يرتجفون من البرد فقط، في أيام الشتاء، بل يصطفّون في انتظار طويل، لينتهي كل واحد من تنظيف نفسه. والويل لأحدهم إن قرَّر الأب أن يشرب فنجان قهوة أثناء استحمامه. فهو لن ينتظر أن ينتهوا من رش طاسات الماء القليلة فوق رؤوسهم، بل سيضرب الباب برجله، ويصرخ بالأم أن تعدّ له القهوة، فيتوقف الجميع عن الحركة، ويصطكون بانتظار فوران الركوة.

بعد أن كبر الأولاد، لم يعد المكان يتّسع لهم، فوزَّعت الأم أيام الاستحمام إلى يومين. كانت عليا تجلس بعد نوبات الاغتسال الخاطفة، وتفتل حبالاً قصيرة بنيّة اللّون، تخرج من جلدها بعد فركه. متعتها الكبيرة، أن ترى الحبال فوق جلدها، وتنظر إليها بفخر، وتشعر كأنَّ شيئًا ما ولد منها. وقد علّمت أخوتها كيف يصنعون حبالاً صغيرة من جلودهم، ويخبِّئون الفتائل التي تخرج من أجسادهم في أيديهم. عندما تنتبه الأم إلى ما يفعلونه. وحين تذوب الفتائل مع قطرات العرق داخل الأكفّ المضمومة، تشعر عليا بتعاسة، وتضطرّ إلى الانتظار أسبوعًا كاملاً، لتحظى بفتائل جديدة.

كانت تشبه حيوانًا مفترسًا. ويحلو لها أن يسمِّيها الآخرون بأسماء الحيوانات. ولكن في حالات غيبوبتها، ترى أصابعها وقد نمت عليها أشياء غريبة، وجلدها كساه الشعر،

وقرون سوداء نبتت أعلى جبهتها، وأسنانها تكبر. تقفز بين أسطح الغرف المتلاصقة والبيوت، مثل حيوان حقيقي.

يعود إليها شعور الخفّة الآن، تنبت سعادة خفية بين ضلوعها وهي تحمل حقيبتها عندما تعاودها أحاسيس الحيونة تلك. ستقفز الآن، مثلما كانت تفعل وهي صغيرة، تقفز فوق التراب، وتحت الفجر. شعورها بأنَّها عادت حيوانًا يجعلها بمأمن من القلق مما لا تعرفه. لكنَّها سعيدة، رغم أنَّها وحيدة، ولا تعرف أين ستمضي، غير أنَّ الشعور الذي استعادته وهي تعود إلى عالمها الأول، بعد أن طردت من عالمها الثاني، جعلها تمشي أسرع.

إنَّها حيوان جديد فوق أرض خالية إلاّ من الاسمنت. تنظر حولها. الناس نيام، ولا أصوات سوى نباح الكلاب. إنَّه الشعور الوحيد الذي ما يزال يشعرها بالانسجام مع عالمها.

حيونتها كانت مصدر انجذاب حنان إليها. تتلذَّذ بأصابعها إذ تلعب وترسم على ظهرها، وتشعر بالغرابة من لون أصابع خادمتها السمراء القاتمة على لحمها الأبيض الناعم، وتسري في عليا سعادة، وهي ترى رضى سيِّدتها، وتتابع تشكيل الألوان الجديدة. صارت مفتونة بالألوان، وبالتباين بين لونيهما، فترسم على ظهر السيدة غيومًا، وحمارًا، وأحيانًا ترسم ورودًا، ثم تصنع جبالاً بيضاء، سرعان ما تنزلق بسرعة. تضحك، وتخفي ضحكتها عندما تضع يدها على فمها، فتترك رغوة الصابون على شفتيها،

وتنظر إلى نفسها في المرآة، فتتخيَّل أنَّها رجل عجوز، وتضحك بصوت خشن، وترسم شجرة طويلة وكبيرة، وتقول لنفسها:

● **أنا.. أنا.. بابا نويل.**

عرفته عند السيِّدة حنان الهاشمي، ورأته في التلفزيون بينما كانت تستلقي بجوارها. وصارت تحلم به ليل نهار، وكانت أحيانًا تبالغ في سعادتها، فتضع رغوة كبيرة على بطنها وتدور، والسيِّدة غارقة في هذياناتها، تمسك أصابعها بشدّة، وتضحك لها. وعندما تخرج عليا مبلَّلة بالبخار، ورغوة الصابون الأبيض، السائل مثل الحلوى المطاطة، تعود إلى غرفتها، تُخرج الأوراق البيضاء، والأقلام، وترسم ما رسمته منذ قليل على ظهر السيِّدة، وتتذكَّر ملمس جلدها الناعم، وروائح الزيوت المنعشة، فتشعر أنَّها تعيش في جنة. كانت رسومها تبدأ بالتشكُّل على رقبة السيِّدة، وتنتهي أسفل الظهر.

عاشت بإحساس منعش، في مكان ملوَّن ونظيف. عيناها تعبران الأفق، ولا تردّهما جدران الغرفة الصغيرة في زقاق الرمل. تغمضهما، وتحاول أن تصدِّق أنَّها في مكان تظلِّله الأشجار، وتلعب الستائر الناعمة على نوافذه. والأهم من هذا كلّه، أنَّ ركلات والدها لم تعد تطولها، وشبح أختها مفتوحة العينين لا يلاحقها في الليالي، ولن تشم روائح حاويات الزبالة. لذلك كانت تنتفض ما إن تضعها حنان الهاشمي في حضنها، وهي ما تزال في

الحادية عشرة من عمرها، وتجعلها تفرك جسدها بأنواع غريبة من الزيوت، وتعصر جلدها المرتجف بأصابعها. تتحرَّك كعجينة، وتترك للسيِّدة أن تفعل ما يحلو لها. المداعبات الناعمة التي كانت تخافها بداية، وتأتيها في نومها كوابيس تحرمها النوم، تحوَّلت إلى أحلام يقظة تنتظرها بعد أن كبرت يومًا بعد يوم في الفيلا، وعرفت أنَّها تخبِّىء في جسدها، كنزًا تمنحه لسيِّدتها ساعة تشاء، وتمنعه عنها عندما تكون في مزاج سيِّئ، فقط أثناء الليل، بينما كانت تتجنَّبها في النهار، وكأنَّها نجس، وتحاول إبعادها عنها.

الليل هو الليل، والنهار هو النهار.

تيبَّست أصابعها على مقبض الحقيبة، وشعرت بوخزات حادّة تتسلَّل إليها، وتحاول جاهدة أن تجعلها متماسكة لتحافظ على توازن مشيتها، باتت على وشك السقوط، بينما تلتفّ أصابعها فوق جلد الحقيبة. انفلتت كفها، وسقطت الحقيبة، وشعرت ببرودة تسري في أصابعها الدافئة، التي كانت تلعب فيها ألعابًا حوَّلتها إلى ملكة المكان المسحور. نظرت إلى ارتعاشها. خبَّأتها في بطنها، وهي تتساءل عن السبب الذي يجعل الأصابع ترتجف في الصيف. ربما لأنَّ الفجر كان باردًا، كما في كل أماكن الخلاء التي يشبه مناخها الصحراء.

لكنَّ البرد لم يكن على درجة كبيرة، ليجعل أصابعها تتيبَّس على هذا النحو. أدركت أنَّه الخوف. الخوف وحده ما

يحوِّلها إلى قطعة من الجليد. تذكَّرت كيف كانت تنتصب تلك الأصابع، وتمتنع عن الالتواء والرقص، وكيف تتسرَّب إليها وخزات حادّة من الألم، كما يحدث الآن، وهي تحاول أن تضع الأصابع في جيبها، تحميها من لسعة البرودة الصباحية، تتأمَّلها، فتشعر أنَّها غريبة عنها، الأصابع التي حوَّلت ليالي حنان الهاشمي إلى متع لا تنتهي، قبل أن تطردها نحو مجهول جديد.

لم تستطع نسيان اللحظة التي انقضّت عليها كمجنونة، وطردتها. لن تنساها وما تزال عندما تذكرها، ترتجف وتتساقط مثل ورق أصفر مهترئ على غصن يابس. تحاول أن تقنع نفسها بسبب واحد يجعل من تلك المرأة المجنونة، تلبس وجوهًا كثيرة، وجوهًا مخيفة إلى درجة أنَّها تجعل عليا ترتجف وتراها في أحلامها تتحوَّل إلى وحش. في السرير يصبح وجهها مختلفًا، كأنَّ جنيّة سكنتها، تصير طفلة تلمع النجوم في عينيها، وترتخي أطرافها، تصير طفلة مطيعة بين يدي عليا. وأحيانًا تلبس وجهًا ثالثًا عندما تحضر ضيفاتها، تصير بلا لون، تتحوَّل قسمات وجهها إلى خطوط منكسرة، فلا تضحك.

الوخزات تشتدّ، فتقرب كفَّيها من شفتيها، وتنفخ فيهما أنفاسها الحارة. تنظر ثانية إلى الخلف، فلا تلمح شيئًا من عالمها. العالم الذي كان منذ وقت قريب كلّ ما تملك. تحمل حقيبتها ثانية وتركض. تتعثر بكعب حذائها العالي. تستغرب لماذا

أصرَّت على ارتدائه. لوهلةٍ خيل إليها أنَّها تشبه حنان الهاشمي في طريقة ارتدائها ثيابها، حين تذهب إلى سهراتها التي لا تعود منها إلاّ عند الفجر.

خلعت الحذاء وحملته بيدها، مستمرّة بالركض. تبكي بصوت عال، كما كانت تفعل، وهي صغيرة. تجفِّف دموعها وتركض. تتعثَّر. تقف وتعاود الركض. لم تسأل نفسها إلى أين؟ كانت خائفة، ولا تعرف لمَ سكنها الخوف إلى هذه الدرجة؟ ومِمَ تخاف؟ لا تعرف كانت خائفة وحسب، وتستعيد أيّامًا اعتقدت أنَّها ولّت إلى غير رجعة، عندما كانت تحمل السكين وتضعها جانب فخذها، وقلبها ينتفض بقوة، وهي تراقب باب غرفتهم الصغيرة التي كانت أختها بداخلها.

كان النشيج يملأ الفضاء الفسيح الذي تمشي عليا في أحد دروبه الصغيرة، وحيدة، إلاّ من أصابعها وحقيبتها وخوفها الذي أعاد لها ذكريات حيٍّ الرمل.

سمعت صوت محرِّك سيارة، أجفلت. تذكَّرت أنَّها وحيدة في طريق خال، وشمس الصباح لم تطلع بعد. توقفت عن المشي، أخفضت رأسها، وأخرجت من حقيبتها الصغيرة، سكينًا حادة. أطبقت عليها بإحكام، مستعدة لإشهارها في وجه أيّ كائن يطلع من تحت الأرض أو من فوقها، لكنَّ السيارة لم تتوقَّف أو تتمهَّل، واستمرَّت هي في المشي، لا تلوي على شيء.

مرّت السيارة بسرعة خاطفة، وتسارعت دقات قلبها. بعد لحظة، عاد الصمت وسكن الغبار.

تنهّدت. أعادت السكين إلى حقيبتها، ونظرت نحو الفيلا. كانت تنظر إلى المكان بذهول، تحدِّق في المسافة التي قطعتها بسرعة. الفيلا التي خرجت منها بدت كسراب، ولوهلة، تخيَّلت أنَّها لم تكن يومًا فيها، وهي تحاول أن تستعيد شجاعتها، كما درّبت نفسها، لسنوات طويلة. كانت مستفزّة. كل جزء من جسدها يغلي ويفور. صدرها يعلو ويهبط. عيناها حادتان، كحدّ السكين التي لم تفارق جيبها، منذ أن خبّأته أمها يومًا في جيب ثوبها المدرسي، عندما كانت تعلِّمها كيف تستخدمه ضدّ الصبيان والرجال الذين كانوا يحشرونها بين وقت وآخر، في أزقة الحي المعتَّمة.

لم تكن عليا فقط، من تعلَّمت استخدام السكين. كثير من الفتيات فعلن ذلك، وعليا كانت الفتاة الوحيدة التي شهرتها علانية، وتباهت بلمعانها تحت وهج الشمس. ولم تفعل ذلك مصادفة أو تبجّحًا.

كان ذلك في أحد الأيام، عندما بقي الباب مواربًا، وخرج الأخوة من البيت، وبقيت عليا الكبيرة وحيدة، تحدِّق في ضوء الشمس الذي دخل من شقّ الباب، وتستمع إلى وقع الأقدام، وصراخ الأولاد، وزعيق الأمهات. ولم تنتبه إلى الظلّ الذي سدّ الباب فجأة. حدث ذلك برمشة عين. كان الوقت ضيِّقًا، لتسأل

ابن الجيران ما الذي يفعله. أغلق الباب، وسقط عليها، فشعرت أنَّ عظامها ستتهشم تحت ثقله، وأطبق بأصابعه على فمها. كانت تتخبَّط تحته مثل سمكة فقدت بحرها، لكنَّه لم يبال. وجهها تجعَّد فجأة، وشعرها تلبّد حول رقبتها، وصارت أطرافها ترتجف. تغيَّرت كليًّا عن الفتاة العذبة التي كانتها يومًا، وابن الجيران الذي كان يراقب الغرفة ليلاً ونهاراً، منذ أن اختفت الأخت داخلها، وابتلعتها إلى الأبد، وجد أنَّ طريقه سهل، فشمَّر العباءة حتى سرّتها، ولم يعرف ما حدث بعد ذلك، لأنَّه انتفض بارتعاشة، قبل أن يدخل فيها، واهتزّ كلّ شيء من حوله، وكانت عليا الكبيرة على وشك غيبوبة، تحاول التنفُّس. كفه سدّت أنفها وفمها معًا، ولولا ارتعاشته السريعة، وهروبه، دون أن ينظر في وجهها الأزرق، لاختنقت تحت ثقله، وصار من وقت لآخر، ينتظر خروج العائلة من الغرفة. فيحمل في يده سكينًا حادّةً، ويطبق بأصابعه على شفتيها، وينزع سروالها بعنف، ويعتليها. فعل ذلك عشرات المرات قبل أن تكتشفه عليا الصغيرة، عندما فتحت الباب الحديدي الصدئ، وسمعت نشيج أختها الخافت، ورأت عجيزة سوداء تتحرَّك فوقها بتسارع منتظم، ولمع حدّ السكين التي يحملها عبود في شفتيه. ألقت بكتبها، وسحبت سكينها المثبتة بحزام جلدي في طرف سروالها، وصرخت كمتوحشة لا تتقن الكلام. مزَّقت ثوبها المدرسي، وقفزت فوق عبود نصف العاري، ورسمت خرائط بالدم على عجيزته، وجعلته يقفز كالقرد. كانت

تلحق به كوحش صغير، وتضرب بسكينها كل ما يمكن أن تطوله من جسده. وعندما تعثَّر قليلاً، وهو يحاول ارتداء سرواله، قفزت على ظهره، وعضته، وأوقعته أرضًا. ولولا الرجال الذين نزعوها عنه بصعوبة، لقتلته، لأنَّ أسنانها انغرزت بكتفه، وخرج دم لوَّث شفتيها الصغيرتين. ولوهلة، صارت جزءاً منه، ومزَّقت جلده ونهشته، حتى خُيِّل للرجال أنَّهم أمام حيوان مفترس.

وظلّ أهل الحارة يتندَّرون على عبود، ويتذكَّرون عليا، وهي تلحقه، والدم يقطر من جسده بفعل ضربات الموسى الحادّ. تصيح وتسبّ وتشتم، وتفتح رجليها مثل قبضايات الحارة، وتتحدَّى أيّ ابن امرأة أن يحاول الاقتراب من أختها المشلولة.

الأخت انتحرت في ليل ذلك النهار. ولم تعد عليا إلى كتبها المدرسيّة. لا تستطيع نسيان ما حدث ذلك اليوم. رحلت الأخت في الليلة نفسها التي عرف فيه أهالي الحارة ما فعله بها عبود، وهي عاجزة عن الحركة. ولم تعرف عليا لماذا لم يصلّ الرجال على أختها، كما يفعلون عادة عند دفن موتاهم، ولماذا كانت النساء تنتحب بغزارة، وهنّ يصفن جمالها. كانت مأخوذة بعيني الأخت المفتوحتين على اتساعهما، ولم تخبر أحداً بأنَّها سلمت الأخت العلبة الصفراء التي ترش أمها بها أرض الغرفة وزواياها خوفًا من الجرذان، ولم تفهم لماذا تدفَّقت الرغوة البيضاء من فم الأخت، ولماذا اختفى صوتها، وصارت تتساءل لوهلة، كيف ستعيش أختها تحت

الأرض مع الشيطان؟ الشيطان الذي صار يأتيها ليلاً، في الحلم، على هيئة عبود تارة، وهيئة الأب تارة أخرى.

كانت تستيقظ بعد كوابيسها، تحمل سكينها وتبحث بين أزقة حيٍّ الرمل الموحلة والمعتمة، عن عبود الذي اختفى بعد تلك الحادثة، ولم يتجرأ على العودة، حتى اختفت عليا يومًا، وقال أهل الحارة إنَّ والدها تركها لعائلة شامية عريقة، وقبض ثمن خدمتها لسنوات قادمة.

آنذاك كانت عليا في العاشرة. تركت المدرسة وانضمَّت إلى جوقة الأولاد الذين يدورون على حاويات الزبالة، في عدة أحياء من دمشق، ولا يهمّهم إن كانت أحياء الفقراء، أم أحياء الأغنياء، لأنَّ مهمتهم كانت تنحصر في لمّ العبوات الزجاجيّة الفارغة، وتنظيفها وحشرها في أكياس بلاستيكيّة. وكانت ترى عملها الجديد أرحم من البقاء في البيت، أو الاستيقاظ مبكّرًا، وقطع مسافات طويلة فوق الدروب الطينيّة التي يتوجَّب قطعها، للوصول إلى المدرسة.

قلبت حنان الهاشمي حياتها؛ نظفتها من نفسها وهواجسها، أزالت عنها كل طبقات الغضب، ومسحت بأصابعها صور حيٍّ الرمل. لكنَّها تعود الآن، بكلّ ما فيها. لا يغيب أيّ تفصيل عنها. دفقةً واحدةً تستقرّ الصور في عقلها. فتحثّها على الهروب مرة، وعلى التوقُّف مرات.

* * *

فكَّرت حنان أنَّ خادمتها ستكون في خطر، إذا تجاوزت منطقة الفيلات. ما تزال تتعثَّر بخطوات قليلة بين النافذة المغلقة، وبين زوايا الغرفة.

● لو أنَّها تعود!

تنهّدت بعمق، وهي تحلم بطريقة لاستعادة عليا، دون أن تفقد كبرياءها.. ستجعل البستاني يخرج للبحث عنها. فجأة تذكَّرت أنور الذي تركته سابحًا في لامبالاته، وضحكت باستهزاء. لن يستطيع التمساح العجوز مساعدتها، بقي متيبِّسًا على فراشه، ولم ينبس بحرف.

كم تتمنَّى موته! تشعر أنَّه كائن طفيلي يمتصّ حياتها. وطالما فعل ذلك منذ الليلة الأولى. لم تحب يومًا هذا الرجل الذي كان أخاها، ثم تحوَّل إلى ابن عم، ثم صار زوجًا، وأخيرًا أصبح تمساحها العجوز.

التمساح الذي كان يضع كفه على شفتيها، يطلب منها السكوت، يعتليها لدقائق بصمت، ثم يقوم يغتسل، ويعود منطويًّا داخل قوقعته. كانت تكبر وتنضج، وكان أنور يشيخ. يقضي الساعات يشرب الفودكا ويداعب مسبحته الذهبيّة ويعقد صفقاته الغريبة. كانت تعتاد على صداقاته سريعًا، وترافقه في بعض الأمسيات والدعوات إلى بيوت تجّار ينفصل فيها مجلس الرجال عن مجلس النساء، وأحيانًا تقضي صباحاتها مع نساء معارفه وشركائه. لم تفكِّر إن كانت تعَيسة أو سعيدة. تضايقها الكثير من تصرُّفات الزوجات اللواتي تضطرّ لمجاملتهن أو دعوتهن، بناء على رغبته. الأصدقاء الذين هم أصحاب دعاوى ومصالح وشركاء أسهم في عدّة شركات، داخل سورية وفي لبنان والأردن، وأغلبهم من الوزراء والتجار الكبار.

وصارت تشارك في حفلات الجمعيّات الخيريّة، وتحضر الجلسات التي تقيمها الشيخة أمينة في منطقة المالكي، مع نساء الطبقة الثريّة، وتزور الصديقات في منازلهن، وتستقبل أفراد العائلة العائدين في زيارة قصيرة من المهجر، وتراقب ممتلكات زوجها التي تزداد.

أحيانًا، تشعر بالخوف من معارفه؛ فهم أناس لا يمكن رؤيتهم إلاّ على شاشة التلفزيون، أو يمكن أن تسمع بإسمهم فقط. تشعر بالملل منهم ومن حياتها كلّها، لكن لم يعد بوسعها

التراجع عن كلّ ما حافظت عليه: حياتها المستقرّة، سهرات المجتمع الراقي التي تتهادى فيها مثل أميرة مدلَّلة، رغباتها وهوسها بالتسوُّق. كل ما تريده تحصل عليه، باستثناء أنَّها لم تنجب طفلاً. وقد سافرت إلى جهات الأرض الأربع من أجل جنين ينمو في أحشائها، وكانت تعود بخيبة أمل دائمة. لكن ما حدث عندما دعيت إلى حفل عشاء، وتعرَّفت بالسيِّدة نازك، قلب حياتها، وصارت تعرف معنى أن ينتظر الإنسان طلوع الشمس، ليقفز من فراشه فرحًا خارج مساحة بيته. زوجها أخبرها أنَّ عليها نيل رضى نازك، وبالغ في حثِّها على التقرُّب منها، والسيِّدة المهمة لم تنتظر كثيرًا، حتى أقبلت على حنان باهتمام، ودعتها إلى فيلّتها. كانت السهرة قبل أن تكتشف كنزها الصغير بين أصابع عليا.

في تلك السهرة أحضرت السيِّدة نازك لكلّ واحدة منهنّ مشروبها الخاص، وعندما سألت حنان الهاشمي عن مشروبها المفضل، تلعثمت حنان إذ إنّها لم تذق طعم الخمر قبلاً، وقالت: فودكا بالليمون.

قالتها وأحسّت بالذهول، وهي تسمع رنين صوتها في الهواء:

- **فودكا بالليمون.**

لماذا لم تخبر السيِّدة نازك أنَّها لا تشرب؟ قرَّرت الاحتفاظ لنفسها بهذا السرّ، بعيداً عن أنور.

أحاطتها مضيفتها بعناية فائقة. كانت نازك ذات صوت خشن، ترتدي سترة خفيفة من القطن الأبيض، وسروالاً من الجينز الباهت، وتنتعل خفًّا رقيقًا، ولا تضع أيّة زينة. وبدت أصغر من عمرها، وهي تتجوَّل وتقفز مثل أرنب جائع. تذهب وتعود إليها بين لحظة وأخرى. تأتي بأصناف غريبة ولذيذة من الطعام، وتقدِّم لها الصحن وتنتظر أن تتذوَّقه، ثم تنحني أمامها لتأتي بصحن جديد، فتشعر حنان بخجل شديد من الاهتمام الذي تبديه لها هذه السيِّدة. الأخريات أطرين جمالها وتسريحة شعرها القصيرة، ولم يَنْتبْها الضيق كما يحدث في أغلب الدعوات التي يجبرها زوجها على حضورها، فتضطرّ إلى أن تكتم صوتها، وتشعر بالاضطراب لأنَّ العديد من الرجال كانوا ينظرون إليها بشهوة، فتحسّ باختناق لم تعرف سببه. تسترجع الارتعاشات اللذيذة التي ينتفض جسدها بها، عندما تلتقي عيناها بعيني رجل. تتمعَّن فيهما، وتلمح البريق الحادّ الذي يقطع قلبها نصفين ويهزّ أوصالها، وتريد الهروب بعيداً، حتى لا يفضحها الارتجاف.

بين السيِّدات، شعرت أنَّها بحال أفضل. الرجال يخيفون أنوثتها. هنا بين النساء، تسير كنائمة في حلم من الحرير والنعومة، تستلطف صاحبة الدعوة، وتشعر أنَّها محطّ ثقة وقريبة إلى قلبها الكسير.

الأخريات تركنها برفقة مضيفتهم بهدوء تام، وربما بتواطؤ، يراقبن عن بعد بعيونهنّ اللاّمعة.

كن أربع سيدات بين الأربعين والخمسين تقريبًا، لكنّهنّ يبدون أصغر من عمرهن، ويشربن بطريقة تستغربها حنان، كأنّهنّ يدلقن في بطونهن الماء. ولم تصدِّق أنّهنّ السيِّدات اللواتي يحضرن السهرات مع أزواجهن. بَدَونَ مختلفات تمامًا، ولمحت بريقًا مجنونًا في عيونهن، وصرن أكثر جمالاً، لكنَّها فيما بعد ستعرف، عندما تقول لها السيِّدة نازك وهي بين أحضانها:

- **مع النساء هناك شيء أكثر جمالاً وحساسية. شيء يجعلكِ تلمعين. مع الرجال تحدث الأمور بشكل مختلف. فهناك أنواع للرجال، رجال تحلمين أن تقفلي عليهم بابك لأيام طويلة، تضاجعينهم حتى الإنهاك؛ وخارج مساحة السرير لا يعنون شيئًا.. ورجال تحلمين أن تقضي عمرك وأنت تكلِّمينهم وتغازلينهم، ومتعتك تأتي من البقاء على حافة هذه المسافة فقط.. ورجال تريدين البكاء في أحضانهم، ورجال تجلسين معهم وتناقشين أمور الدنيا، عاليها وسافلها. مع النساء للحب شكل**

مختلف، فعندما يتملكك الشغف والانجراف الحارق، وتغرقين في قبلة مع حبيبتك، تحصلين على كل هؤلاء الرجال، دفعة واحدة. تحصلين على عاشقة وصديقة وشبق لا ينتهي. النساء أكثر إحساسًا بالحياة، صدّقيني. الرجال أجلاف حتى لو تظاهروا بالعكس. النساء يَنسَبْن كالحرير في أحضانك، ويعطين قلوبهن قبل أجسادهن. الرجل لا يفعل ذلك.

كانت حنان تدرك أنَّها في طريقها إلى رمي كل شيء وراءها. ولم يعد أمامها من أمل للتراجع أو العودة إلى نقطة البداية. تتساءل وهي تراقب النساء اللواتي يتحوَّلن إلى فراشات: من أين تأتي فرحة حركاتهنّ؟

التوهُّج المحيط بكلّ منهنّ يلاحقهن مثل هالة، فينجذبن نحو بعضهن، يضحكن بعذوبة ويسبحن في مكان عديم الجاذبية. كانت إحداهنّ «لينا» زوجة ضابط، فاتنة. ليست بيضاء تمامًا، لكنَّها شقراء زهرية مثل أغلب نساء الساحل السوري، وهي الأقل خبثًا بينهن بحكم انتمائها الريفي، وتصف أهل الشام كما يحلو لها بالبنادقة! وهذه الكلمة لم تكن تثير غضب السيِّدات الشاميّات.. وهي تروي أنَّ تيمورلنك، عندما غزا دمشق، سبى نساءها، وتركهنّ لجنوده الذين اغتصبوهنّ أيامًا، فتوالت أجيال من أولاد الحرام، وصار الأولاد في الشام

يُسمّون بالبنادقة. وبينما تضحك النسوة، تنبري إحداهن لتروي أنَّ كل الخادمات اللواتي مررن على جداتهن، كنَّ من بنات الساحل الجاهلات، ذوات الشعر المليء بالقمل، واللواتي يفتحن أرجلهن لأسيادهن آخر الليل، فتضحك لينا ولا تهتمّ أيضًا.

السيِّدة الثانية، كانت زوجة صاحب مصنع للمنظّفات، وتضع حجابًا رقيقًا بطريقة عصريّة جدًّا. طريقتها في ارتداء ثيابها غريبة، وتبدو أشبه بحديقة متنقِّلة بألوانها الفاقعة.

مها السيِّدة الثالثة، نحيلة وصامتة، تتحرَّك بعصبيّة واضحة، وتدخِّن باستغراق، لكنتها غريبة لأنَّها عاشت طفولتها في حلب، قبل أن تتزوَّج في دمشق، وتواظب مع السيِّدة نازك على حضور سهرات، تقيمها في حلب مع بنات العشرة اللواتي تعرَّفت إليهنّ حنان فيما بعد، في سهرة دعتها إليها نازك. وبنات العشرة في أغلبهن متزوجات، ولكلّ منهن صاحبة أو عشيقة، وأغلبهنّ يتزوَّجن مبكرًا. والقليل من الناس يعرفون بأمرهن، فمجالسهن حكر على النساء. والرجال يأمنون حين تكون نساؤهم بصحبة نساء أخريات، حتى لو شعروا أنَّ في الصحبة ما يريب. فالأمر يبقى مقبولاً، إذا بقيت علاقة المرأة سرّيّة. وما إن تبدأ التقوُّلات، حتى يلجأ الزوج إلى فصل العلاقة بين زوجته وصاحبتها.

الكثيـر من بنات العشرة، كنّ من نخبة المجتمع الحلبي الثري. وقد حرصت السيِّدة نازك ألاّ تدع حنان تقترب من إحداهنّ، فهنّ ماهرات في فنون الحب، وتخشى أن تخطف إحداهن منها عشيقتها.

السيِّدة الرابعة في السهرة غامضة، لا يستر جسمها سوى فستان رقيق، يبدأ عند بداية صدرها، وينتهي فوق الركبة، ولم تتحدَّث عنها نازك بإسهاب أمام حنان، وتعاملها بكثير من العطف والهدوء، ولا تناديها باسمها بل بلقب: أم النور.

حنان خائفة، والنار تكويها من حلقها حتى أصابع قدميها، وهي ترتشف الفودكا. كانت عدّة رشفات كافية لتشعر بحريق يشعل أحشاءها، لكنَّها سعيدة ومذهولة، تكتشف الغبطة للمرة الأولى، وهي تستمع إلى النكات البذيئة.

- **هنّ سعيدات**. قالت لنازك، وارتشفت الفودكا.
- **أكثر من السعادة**. أجابت، وهي تحاول قراءة حنان.
- **أحسدهنّ**. قالت، وهي تضع كأسها جانبًا، وترمي برأسها باستسلام.
- **وهل تنقصك السعادة!! ليس هناك امرأة أحقّ منك بالسعادة.**

- **لا أعرف**. أجابت حنان. تريد التفكير فيما قالته نازك، ثم تابعت:
- **كيف تكون السعادة؟ بالرضى؟ أن أكون راضية؟**
- **السعادة أن نفعل الأشياء التي نرغبها ببساطة، لكنها أكثر تعقيدًا من ذلك، وأنت تعرفين أن أحدًا لا ينال السعادة كما يرغب.**
- **من يرغبها!! أنا؟ أنت؟ هم؟** أجابت نازك، ولفَّت حول حنان، وتفحَّصت تفاصيلها بدقّة، مثل طير جارح سينقضّ على فريسته. كانت تأكلها بعينيها، وحنان مسترخية لامبالية.
- **هل أنت واثقة أنَّها سعادتك أنت؟ ربما تكون سعادة مؤقتة. لكنَّها تبقى سعادة.. نضحك ونمرح ونُسعِد من نحبّهم**. اقتربت منها، وهي تمرِّر أصابعها الساخنة على جبينها. أزاحت حنان رأسها، فابتعدت أصابع نازك، وتابعت حديثها، وهي تنحني على وجه حنان:
- **أنت أرق مما يجب يا حمامتي.**

أخذت تسترجع في ذاكرتها، لحظات استسلامها لنازك، سعيدة باكتشافها بديل الخادمة التي طردتها. وما تلبث أن

ينقلب رضاها بالذكرى إلى حزن عميق، إذ تتذكّر كم كانت ضئيلة في نظر نازك. ليست بضآلة خادمة، لكنّها على الأقل كانت المقادة. نازك هي التي اصطادتها واطلعت على تلعثمها، وهشاشتها، بينما كانت هي سيِّدة عليا، سيِّدتها في الصباح، وسيدتها في الليل أيضًا. ألم تقد أصابعها إلى مواطن اللّذة؟ ألم تأمرها في البداية؟ حتى لو صارت تتصرَّف كسيِّدة بعد ذلك، فإنها لم تكن تفعل ما تفعل إلا لأنَّها تعرف أنّه المطلوب.

تتذكَّر كم كان قلبها يتصدّع، وهي تائهة بينهن، نظرة الدهشة نفسها التي قرأتها في عينيْ عليا فيما بعد، عندما تعرَّت أمامها كانت في عينيها في تلك الليلة. انبثقت الكآبة بين ضلوعها كنافورة حارة.

تذكّر تمامًا فستانها الرقيق في تلك الليلة، ماركة «شانيل» كانت تخفيه تحت جلبابها البني، وتنتعل حذاء عاليًا، وتضع رجلها اليمنى فوق اليسرى، وتجلس وحيدة على كنبة منفردة.

نفضت تثاقلها، وصارت تمشي بغنج على صوت الموسيقى، وانتبهت السيِّدات إلى أناقتها، وإلى اللون البني الترابي لحذائها وفستانها، اللّون نفسه؛ لون حجاب الرأس، لون الجلباب، لون الأساور، والعقد، والأقراط، وحقيبة اليد. والبني الترابي يبدو على جسدها الأبيض الحليبي، مثل لون دمية

صغيرة، كأنَّها صورة إحدى الطفلات العارضات في مجلات الأزياء. تضحك بصوت عال، وتعبُّ آخر رشفة من كأسها. تقترب نازك منها وتلوِّح بكأسها: الويسكي ألذّ.

تتلوّى حنان بغنج، وتقبِّلها المضيفة من جبينها، فترتعش وتضحك: أفضِّل الفودكا. تقول حنان. تضحك السيِّدة وتعانقها. فتشتعل حنان لثوان، ثم تقترب من وجه السيِّدة، بحركة ستستغربها أيضًا، وتهمس: أريد كأسًا أخرى.

تمسك السيدة بالكأس، وتعصر كفّ حنان بيديها، فترتجف ثانية، وتعتريها رعدة، تخرج من منتصف رأسها وتستقرّ في أسفل الظهر، تغمض عينيها، ثم تفتحهما. تراقب السيِّدة المترنّحة البشوشة، تعود إليها وتجلس معها على طرف الكنبة، تتحرَّك ظلال النساء بخفّة أكبر. في حركات الظلال، تلمح رغبة كل الأجساد بالتحوُّل إلى كرة دائريّة، ثم تنفلش هاربة من التصادم وفي استمالة كل ذراع للذراع الأخرى. تقترب الأجساد، تبتعد، ترغب في التماس. تنفر وتوارب، تحاول كل واحدة أن تجعل جذعها مركز الحركة. تلفّ وتدور، فتوازي الأرض التي تخبط عليها بالأقدام.

تستغرب حنان الحركة التي تفتعلها النساء، مغمضات العيون، غائبات عن الدنيا. ومع ذلك يتناغم رقص كل عضو من

أجسادهن. تساءلت إن كان جسدها يطاوعها، لكنّها لم تجرؤ على تحريك نفسها. دمها يرقص مع حركاتهن. رفعت ذراعها لتقليد ما يفعلنه، فسقطت، وأيقنت أنّها لن تحافظ على توازنها لو وقفت، واستجابت لفوران الدم تحت جلدها، ومن زاوية مواجهة للكرسي التي كانت تجلس عليها، تشير نازك، فتحاول حنان النهوض، تشعر بتثاقل، وبالكاد تقف. وترى العينين الحادتين، تغيب عمّا يحيط بها، تنسى أنّ هناك سيِّدات أخريات، تمشي ببطء، وتثاقل، فيجن جنون السيدة المفتونة بغنج حنان. تصبح قريبة منها، فتمسك كفّها، وتقبض على أطراف أصابعها، وتسحبها نحو الغرفة الداخليّة.

الغرفة ثلاثيّة الأبعاد، تشبه مثلثًا محفوراً داخل مغارة تحتوي على فراش بلا قوائم، عريض، لونه أحمر غامق، ووسائد صغيرة متناثرة فوق السرير وعلى الأرض. الغرفة دافئة، وأصوات موسيقى تصدر من السقف، وعلى طرف السرير، طاولة صغيرة على شكل قلب زجاجي شفاف، فوقها زجاجات وكأسان؛ واحدة بعنق طويل، والثانية بعنق أقصر، وكلتاهما بحافات مذهبة. وإلى جانب الكأسين أنواع متعدِّدة من السيجار النسائي المعطّر برائحة النعناع.

أغلقت نازك الباب. ضربات قلب حنان تشعرها أنّ جسدها سينفجر. وفجأة تشمّ تلك الرائحة من جديد. الرائحة

تعوم في المكان حين تقترب السيدة منها، وتنزع فستانها، وهي واقفة بصمت. تتعرّى السيدة، وتقف كلتاهما قبالة الأخرى.

عادت تنظر من شق الستارة خلف النافذة، تتوقع عودة عليا، مثل صيّاد يتوقّع عودة صقره المدرَّب، وهي تحاول أن تبعد عن ذهنها، ذكرى تلك اللحظة التي كانت فيها فريسة نازك، لكن الرائحة القوية لتلك اللحظة أعادت إحساسها بيد نازك، وهي تعرِّيها.

تفكِّر بعري عليا التي رحلت عنها، وتشعر بالانقباض لغياب رائحتها. تفكر لو أنّها كانت أقل قسوة، لو جرّتها من يدها، وأغلقت بابها، وصفعتها ثم بكت وتوسلت لها كي تخبرها لماذا خانتها؟ هل كان من الأجدى أن تصفع أنور لأنه عبث بصغيرتها. شعرت أن وجه نازك كان في اللحظة التي عرَّتها فيها وحوّلتها إلى امرأة مختلفة، يطغى على وجه عليا، يعاتب ويقاصص، لكنها نخرت بشدة، وعادت لتحريك يديها في الهواء، وهمست بصوت مبحوح: ماذا جنيتُ؟ تلطم وجهها بكفّيها، وتعود واقفة جامدة إلى ذكريات تلك الليلة في بيت نازك.

ما الذي حدث حتى لوَّعت قلبها ننك الرائحة، الرائحة التي عرفتها للمرة الأولى، منذ زمن بعيد، رائحة سيجار نازك

بالنعناع التي تنقلب إلى رائحة القرفة. حينها كانت تغيب حنان مع دوراها الخفيف. تبتلع الرائحة مع قبلات السيِّدة التي تعبث بجسدها، وفي اللحظة التي تتسلَّل أصابع السيِّدة إلى أسفل حوضها، تفور برعشة، وتفتح منخريها باتساع كبير، ثم تغمض عينيها بين يدي السيِّدة نازك التي تقف مذهولة أمام حنان، تراقب تغضُّنات وجهها الموجعة، وتستغرب: كيف تبلغ امرأة ذروتها، وهي تتألَّم على هذا النحو القاسي؟ وكيف تبوح نشوتها من قبلاتها وملامساتها فقط!؟

وتعيدها رائحة القرفة إلى جسد خادمتها النحيل، عندما صارت حنان الناضجة ربَّان سفينة لذتها، تقود أصابع عليا إلى حيث ترغب، وتغيب في خدر المياه الساخنة والرغوة.

* * *

وضعت عليا حقيبتها على طرف الطريق. جلست فوقها، تستريح وتنتظر عربة الزبالة التي تأتي في هذا الوقت من الصباح، حتى تقلّها إلى المدينة. نزعت السلسلة الذهبيّة من رقبتها، وخبأتها في جيبها. سيكون عليها أن تمنع أيّ فرصة للطمع فيها. سحبت نفسًا عميقًا، واستعدّت لرائحة الزبالة القديمة. رائحة القصور تختلف عن الرائحة التي عاشت معها شهوراً طويلة، ولم تفارق أنفها حتى وقت طويل، عندما استطاعت أصابع حنان، ورائحة الشاي بالقرفة، محو كلّ الروائح التي سبقتها.

الرائحة تعود الآن، رائحة الزبالة التي تكرهها. تبتسم في أسى، وهي تتذكَّر يوم عملها الأول داخل حاويات الزبالة. ارتدت أفضل ما عندها من ثياب: بنطلونًا من الجينز الأزرق، سترة ورديّة؛ مشَّطت شعرها، وشدّته بقسوة، وهي تجدل جديلتها القصيرة، واتّجهت إلى بيت صديقاتها، حيث

كانت مجموعة من الأولاد ينتظرون البدء بجولاتهم اليوميّة المعتادة.

كان الولد الذي يقودهم، ينتظرهم في مخزن كبير، عمقه غير محدود وتصل نهاياته إلى غرف الصفيح، رغم أنَّه يمتلئ بأكياس الزبالة والعبوات الزجاجيّة، لكنَّه البناء الأكثر متانة في الحي، وهذا المخزن لم يكن الوحيد في الحي، بعد أن اعتاد أصحاب المصانع بناء مخازنهم في هذه الأحياء. وتكليف الأولاد بإداراتها.

الولد المشرف على المخزن كان في حوالى الخامسة عشرة، ويتوسَّطهم في الاجتماع الذي انطلقوا منه، إلى أنحاء المدينة، ويُلقَّب بين أصدقائه بـ «ساسوكي» تيمُّنًا بأحد أبطال أفلام الكرتون النينجا، ويحلق شعره من منتصف الرأس، ويتباهى بشعره الإفرنجي، كما يقول لمن حوله، ويحمل في يده ورقة وقلمًا، يسجِّل فيها أسماء الأولاد الذي سيتفرَّقون في مجموعات عبر أحياء المدينة. وعندما وصلت عليا مع البنتين اللتين لم تفارقهما، لمعت عيناه، وشعر أنَّه مقبل على أيام سعيدة مع الجنيات الثلاث اللواتي يقفزن مثل أرانب.

كان هناك خمس بنات وعشرة صبية سوف يتفرَّقون على خمس مجموعات يقرِّر ساسوكي ترتيبها. وكان عليهم

الاجتماع عند الساعة الثانية عشرة والنصف، أمام المخزن الكبير في الطرف الجنوبي للحيّ، قرب مدرسة عليا، وهو ما جعلها تنزعج، لأنَّه سيكون عليها رؤية بعض أصدقائها هناك. صمتت وهي تسمع التعليمات، وبدا أنَّ ما تبقى لها من فرح، قد غادرها، بعد أن أمسك بها أحد الصبية، الذين وزَّعهم ساسوكي، من ذراعها صارخًا:

ــ أنا رئيس المجموعة.

تمخَّط أمامها، وهو يرتجف من البرد. تنظر في وجهه المتشقّق، وتحاول أن تعرف من يكون. تخبرها الصديقة، حاميتها البدينة، أنَّه أحد الصبيان الذين عضّتهم في يوم الشوكولا. وحين تذكَّرته عليا، تحاشته، وقرَّرت عدم الدخول في عراك مع أيّ كان.

انقسموا إلى مجموعات. ينتقل ساسوكي كل يوم مع إحداها. وفي أغلب الأحيان، يجدونه بانتظارهم، وهو يدخِّن النارجيلة أمام المخزن. كانت عليا برفقة الصديقة البدينة وصبي آخر يكبرها بسنتين أو ثلاث، يقودهم عبر الحارات إلى حاويات الزبالة، ويزهو بنفسه أمام الفتاتين مثل ديك، ويطلب منهما الدخول في تلك الحارة، أو الالتفاف إلى اليمين أو اليسار، والسعادة تملأ قلبه؛ فكلّ ما سيجنيه من ليرات، وكل

الروائح الكريهة، التي لا تفارقه حتى في نومه، لا تساوي شيئًا أمام فرحه برفقة هاتين البنتين. كان رفيقًا بهما، وتمنّت عليا بقاءه برفقتهما، لكنَّ ساسوكي يقوم بتبديل الصبْية باستمرار.

في اليوم الأول لها، برفقة الصبي الديك، كانت تنبش أكياس الزبالة السوداء، وتبعثرها في الشارع، ولا تستطيع الحصول على أيّة عبوة زجاجيّة أو بلاستيكيّة. تنبش، تسعل وتمخّط، والصبي يعلّمها كيف تقوم بفرز العبوات، وكيف يمكنها أن تستخرج من الأكياس بعض الأشياء المفيدة، كالأحذية القديمة وأمشاط الشعر والصحون والملاعق، وبعض الملابس الصالحة للاستعمال. وعندما قفز إلى حاوية القمامة وطلب منهما أن يفعلا مثله، رفضت عليا. أمسكها من يدها، وهو يقول: إنَّ عليها أن تتعلّم فنّ النبش، لأنّه سيكون مصدر عيش لها. ولما قفزت داخل الحاوية الخضراء، شعرت أنَّها في قبر، والأكياس البلاستيكيّة التي تنتشر منها روائح مقززة، ستخنقها. لم تستطع التنفُّس، وكانت تراقب يديْ الصبيّ السوداوين، وهما تدخلان في القذارة.

شعرت بهياج بطنها، وهي تتذكّر لحظة تقيأت داخل الحاوية. حاولت التقيؤ، وقامت بعيدًا حتى لا تلوِّث الحقيبة. أخذت تحزّق بطنها وشعرت بطعم عصارة معدتها يقترب من

حلقها ويرتدّ، وهي ترتجف على الرغم من ارتفاع الشمس التي بدأت تبثّ دفئها.

تعود إلى جلستها فوق الحقيبة. وبين وقت وآخر، تأتي عاصفة من التراب، تتمخض عن سيارة عادية، فتضطرب خوفًا، لكنَّ السيارات تمرق دون أن تعيرها التفاتًا. تعاودها رائحة الزبالة دون أن تأتي عربتها. تتذكَّر كيف قفز الصبي فزعًا، يسبّها ويشتمها، ووقف على الرصيف يسمع سعالها الحادّ، وأصوات الإقياء. كانت البنت الأخرى تراقب، وهي تمدّ يدها إلى عليا، محاولة سحبها من الحاوية، لكنَّها لم تستطع أن تفعل شيئًا، لأنّ عليا الجاحظة العينين تسمَّرت في مكانها.

على الرغم من كل شيء، تتذكَّر السعادة التي أحسّتها في تلك الأيام. إذ تحرَّرت من عبء المدرسة، وتعيير الأولاد لها بأنَّها ابنة «اللفاية». تتذكَّر ابتسامة الأم الشاحبة التي وجدت من يساعدها أخيرًا. كان يروق لها أن ترى ضحكة أمها، لأنَّها تبدو أجمل وأكثر شبابًا، عندما تضحك. ومع ذلك فقد عادت عدة مرات، باكية ممزَّقة الثياب، تمسح دموعها، وبقايا القذارة التي تتركها آثار أصابعها على وجهها. لا تجرؤ على إخبار الأم بما يحدث، لكنّ الأم تتكهّن، من الموسى الذي تراه مشرعًا، وتضمّه عليا بكفِّها، وتبقى لساعات أمام باب الغرفة، تراقب الزقاق، متحفِّزة للقفز، وربما العضّ، أو أيّ حركة تطفئ غضبها. كانت

تتحاشى الخروج مع صبية أكبر منها، لأنَّها تعرف ما يفعلونه بالفتيات الصغيرات.

ساسوكي طويل القامة. سمرته قاتمة. وأنفه أفطس، شعره مجعّد مثل خواتم صغيرة، ولديه عادة قميئة، إذ يدخل إصبعه في أنفه، ويقلّد في قفزاته البطل الكرتوني. كان يتصرَّف كملك، يفعل ما يحلو له بالفتيات. يروِّعهن بالسكين التي يربطها إلى خصره. يسمع عن مشاجرات عليا مع الصبيان، ويقسم له الأولاد، إنَّ من الصعب أن يفعل بها كما يفعل بالفتيات الأخريات، فأخذ يطبخ على نار هادئة. وعندما رافقها للمرة الأولى، لم يبد أيّ اهتمام بها. أخذ يمارس دوره كرئيس. لم تؤمِّن عليا له، لأنَّها كانت تلمح نظراته الحادّة، عندما يصطفون أمامه، وهو يعد لكلّ واحد منهم، الزجاجات التي جمعها، ويسلِّمه حصّته من النقود.

عندما يأتي دورها، تفتح كيسها، وهو يعد، وتتجاهل لمسات يده المتعمِّدة. وفي إحدى المرات، عندما اقترب منها والتصق بظهرها، متظاهراً بمساعدتها على إنزال الكيس، أبعدته بحركة عنيفة، ورمت الكيس على الأرض. تجاهل الأمر، وسط ضحكات الصبية الخافتة. انتظر بعض الوقت قبل أن يقرِّر الذهاب مع مجموعة عليا للمرة الثانية، وقرَّر أن يكسر عينها كما قال لرفاقه.

صبي المجموعة في ذلك اليوم، كان نحيلاً بوجه أحمر، وشعر منتوف من الوسط، ومحروق على الجوانب. يحرقه بأعواد الثقاب، وهو يدخِّن في المقبرة ليلاً، مع مجموعة من صبيان الحي. هذا الصبي كان ذراع ساسوكي، يتواطأ معه في جولاته. حين اختاره ساسوكي ليذهب مع عليا وفتاة أخرى، عرف الصبية ما سيحدث.

عندما غمز ساسوكي بعينه لمرافقه، بعد أن ابتعدوا عن حي الرمل، انعطف الصبي إلى زقاق، مصطحبًا البنت الأخرى. ومضى ساسوكي نافخًا صدره، صوب زاوية محشورة بين الجدار والحاوية. عليا تمشي وراءه، تتحسَّس سكينها خائفة، ولا تريده أن يلمح خوفها. تكزّ على أسنانها، فتسمع صريرها، وترتجف. طلب منها فتح الأكياس الملقاة وراء الحاوية. ولوهلة، تصوَّرت أنَّها أساءت الظنّ به، وهدأت، وهي تنحني لفتح الأكياس. باغتها من الخلف، واستطاع أن يكمِّمها.

طرحها أرضًا، ولوى ذراعيها وراء ظهرها. صارت الذراعان ملفوفتين تحت جسدها مثل حبل، وشعرت أنَّ عظامها تتكسَّر، ولم تستطع الصراخ، نزع سروالها، ورمى بثقله عليها، فشعرت أنَّها تنسحقّ تحته. كادت تختنق، وشعرت بشيئه القاسي الحارّ، يحتكّ بها. ولو أنَّه استمرّ لدقائق أخرى، لماتت بين يديه، كما حدث يومًا مع أختها. لكنَّ الأمر لم يستغرق لحظة، وشعرت

بسائل يلوِّثها أسفل فخذيها. وقف ورفع سرواله، وهو يقبض على سكينه بشفتيه، ثم رفع السكين أمامها، واقترب منها: كلمة واحدة وأشقك نصفين. بصق عليها. ماتت لثوان. أغمضت عينيها، ولم تسمع ضربات قلبها التي كانت تضجّ منذ لحظة. تيبَّست، نصفها السفلي بارد، ورائحة أكياس القمامة التي تنام فوقها تتسلَّل إلى أنفها.

في ذلك اليوم، عادت إلى بيتها، واستحمت دون أن تترك سكينها من يدها، والأم تسألها، ما حلّ بها، فتخبرها أنَّها وقعت بين أكياس قذرة. وفي صباح اليوم التالي، عادت إلى العمل بشكل طبيعي، وانتظرت حتى استطاعت أن تقفز فوق ظهر ساسوكي، وهي تحمل سكينها الحادّ، وترسم على وجهه خطوطًا عميقة، تركت ندوبًا لم يمحها الزمن. ثم هربت وتركت العمل في حاويات الزبالة، ولم تخرج من بيتها، حتى قادها الأب يومًا إلى بيت السيِّدة حنان في المهاجرين.

كان ذلك، وهي ما تزال في العاشرة من عمرها.

الآن، تتذكّر الخدوش القديمة التي تركتها آثار أصابع ساسوكي على وجهها، تتلمَّس مكانها، تكتشف أنَّها اختفت، لكنَّها تستطيع أن تعرف أين كانت هذه الخدوش دون أن تراها، وتشعر أنَّها عادت إلى تلك الأزقة، فتنسى لوهلة، ما صارت

إليه. تتناهى إلى مسامعها صرخات عبود، وهو يستغيث بالناس. وفي مكان عميق وخفي حاولت تمزيقه في ذاكرتها، عاد نشيج مكتوم يخنقها. يفور دمها، وترتجف أصابعها، وتتلفَّت حولها. تعرف تمامًا هذا النشيج، تأوه الأخت الجميلة التي سكنتها، وأخذت منها جسدها وروحها.

وقفت تنظر إلى الأفق، علَّها تسمع ضجيج سيارة. كان الصمت طاغيًا. حملت حقيبتها من جديد، ومشت تتعثَّر بكعب الحذاء العالي.

* * *

فكَّرت في إيقاظ أنور، للبحث عن عليا.

النور يتسلَّل من خلف الستائر. نهضت عن أرض الحمّام، وهمّت بالنزول، لكنَّها تردَّدت، وعادت إلى فراشها، تقضم أظافرها وتردِّد لنفسها أنَّها يمكن أن تقتله، لا أن تطلب منه البحث عن خادمتها.

تتضاعف كراهيّتها له. تخرج أمها من بين ضلوعها، وتستقرّ في المرآة. وجوه كثيرة تحمل التعابير نفسها؛ الغضب.

اندسّت تحت الملاءة، تستعيد ارتعاشتها الأولى التي هبّت مع طعم ورائحة الشاي بالقرفة الذي تذوقته للمرة الأولى في الحمَّام.

في ذلك الصباح المبكّر، أمسكت أمها بيدها بينما كانتا تسيران بتؤدة، فوق طريق مرصوف بحجارة سوداء لامعة، ملاصقة لسور المدينة القديم، وتمرّ بقربها قنوات مائيّة، تسمع

هديرها.. طرق صغيرة، تتفرع عنها حارات أكثر ضيقًا، وقناطر بأحجام مختلفة، جدران حجريّة، ومشربيات لم يبق منها الكثير. بعد الجدار الحجري، تبدو الباحة الواسعة بأشجار النارنج والورود والياسمين التي تحوِّل ليالي المدينة إلى رائحة تغطِّي كل البشاعات الأخرى. يتذكَّر أنف حنان تلك الرائحة، فتستعيد زيارتها الأولى لحمّام النسوان، يوم زفاف ابنة جيرانهم.

كانت العروس متوسِّطة القوام، ممتلئة، تكبر حنان بثماني سنوات، وتتردَّد على بيتهم مع أمها الحاجة حسنيّة الموالدي، في عباءتها السوداء. لكنَّها كانت في ذلك الصباح، تجلس إلى جانب الجرن الحجري الكبير، واثنتان من النساء العاملات تفركان ظهرها، وأمها تدور بمبخرة تتصاعد منها روائح تختلط بروائح الأجساد وصابون الغار وزيوت الشعر. البخار كثيف، والنسوة يتحرَّكن كأشباح، ويشبهن بعريهن مخلوقات إلهيّة قادمة من الفضاء، مسدلات الشعر، يتهادين بغنج ويصحن ويزعقن، ويتلصصن على تفاصيل جسد العروس، يروين فضولهن مما سيغدو مادة للحديث في صباحات الشام: كيف يتكوَّر الردفان؟ هل حوضها واسع بما يكفي لإنجاب أولاد أصحاء؟ هل صدرها كاعب، أم مترهل؟ وملمس بشرتها، هل هو ناعم؟ فخذاها مشدودان ومنسابان؟ هل رائحتها زكيّة؟

لكلّ جسد رائحة، وعلى أم العريس أن تحضن العروس وتتشمَّمها مرات ومرات. ورغم أنَّ أغلب النساء ذوات الأصول الدمشقيّة يمتلكن بشرة بيضاء، وقوامهن يميل إلى الامتلاء، إلاّ أنّ ذلك لا يعني شيئًا بالنسبة لأهل العروس الذين يأتون بابنتهم إلى الحمَّام لتكون فرجة للناظرين، وهي في السادسة عشرة، وما يزال جسدها الأبيض اللدن في حمَّى نمائه، تقرصها النساء من كلّ أنحاء جسدها، يغمزن بعيونهن ويهلّلن لها، تتحرَّك بتثاقل وغنج، فتتحرَّك العيون معها، ويتخيَّلنها في سرير العريس. وحنان كانت واحدة من البنات اللواتي يرافقن العروس عادة في حمَّامها الأخير قبل الليلة الموعودة؛ ليلة الدخلة.

كانت حنان تشعر برهبة عريها في الحمَّام، وهي تقتفي أثر أمها المنشغلة بتدخين النارجيلة، مع بعض النسوة في صحن الحمَّام، وسط الهرج والمرج. وفي الآن ذاته، مفتونة بالعروس أيضًا، وتلحق بها أنّى تحرَّكت، وتفكِّر بمعنى أحاديث النساء وعيونهن اللامعة، والنسوة يمازحنها، حين تخرج من الغرف الداخليّة، ويطلبن منها الجلوس بجانب العروس، لكنَّها كانت قلقة وتنظر من طرف المكان نحو أمها التي تلوِّح لها من بعيد، وتطلب منها العودة إلى الداخل. الأم تضحك وهي تجلس وسط النساء، وتبدو ملكتهن، فتعود حنان إلى جانب العروس التي تطلب كأسًا من الشاي بالقرفة.

تذكر حنان أنَّ النساء ضحكن من رغبة العروس التي احمرّت خجلاً، وتنهدّت وهي تطلب منهن الابتعاد عنها قليلاً، والانتباه إلى قرصاتهنّ التي قد تترك آثاراً عليها. بعد ذلك، وعندما تكبر حنان قليلاً ستعرف أنَّ عيدان القرفة التي كانت أمها تغليها مع الشاي للعائلة تفعل فعلها السحري للعروس، وتجعلها أكثر قدرة على احتمال رغبات الرجل في فراش الزوجيّة، لكنَّ العروس في حمّام العرس ذاك تداركت خجلها وسيرة القرفة التي لن تنتهي بسلام، واحتمت بزاوية بعيدة عن تلصُّص النساء، وطلبت من حنان البقاء قربها وهي بالكاد تفتح عينيها، وأخذتها من يدها، وربتت على ظهرها برفق، ثم حملتها في حضنها وهي تضحك وتصفها بالشقيّة، وتعيد على مسامعها كلمات رقيقة عن رحلات العائلتين إلى الغوطة، وشيطنات الأولاد وراء أشجار المشمش، ثم أفلتتها وجعلتها تنزلق في الجرن الحجري، وبدأت تفرك جسدها بطين غريب ذي رائحة عطرة.

كانتا تضحكان عندما جاء كأس الشاي، وانتشرت رائحة القرفة. المرأة التي حملت الكأس كانت سيِّدة ضخمة، تنظر حنان إليها من الأسفل، فلا تلمح رأسها، وترى أمامها كتلاً من اللحم المتهدِّل. وعندما تستدير يرتجّ ردفاها، فتحدّق بها الصغيرة بشراهة، وتضحك العروس بصوت عال، وتهمس في أذن حنان:

• **جبل قاسيون يتحرّك.**

تبتسم حنان بخجل، فتقرِّبها العروس منها، وتغطِّي بالطين مؤخرتها، وتصيح طالبة كأس شاي ثانيًا. تقترب من حنان وتهمس:

• **لذيذ مع البخار، الشاي لا معنى لها من دون القرفة.**

تقول، وهي تحدِّق بحنان التي أخذت ترتعش.

العروس ترتشف الشاي فتهب الرائحة، رائحة القرفة مع البخور والماء الساخن وزيت الغار والطين الذي يغطِّيها. كانت حنان ترغب في النوم، شعرت أنَّ كل ما حولها يدعوها لإغفاءة قصيرة وسط الهرج والمرج، انتبهت العروس أنَّ بنت جيرانهم بدأت تغفو، فانزلقت جانب الجرن الحجري، ورشّت الماء الساخن على جسدها، ودلكت فخذيها. لمعان عينيها يشتدّ. وحنان المدهوشة من صحوتها المفاجئة، التصقت بها وطوقتها بذارعيها، وبدأت تشعر أنَّ عتمة بيضاء تسلَّلت إلى بصرها. سحبت العروس يد حنان المرتجفة، ووضعتها على نهدها الأيمن. كانت حلمة ورديّة كبيرة بين أصابع الصغيرة. بقيت أصابع حنان يابسة في مكانها، وأرادت أن تصرخ، ولم تفهم ما الذي يجري، وظنَّت أنَّها تحلم، لكن شهقة العروس أيقظتها. أطلّ رأس جبل اللحم المتحرِّك، ووضعت المرأة كأس الشاي الساخن قرب الجرن.

ثم انصرفت، أمسكت العروس بالكأس، وقرّبته من شفتي حنان التي ارتشفته، فشدَّتها ثانية نحوها، ولمحت حنان المكان العميق الذي يجب على النساء إخفاؤه، والحرص عليه أكثر من حرصهن على الحياة، كما كانت أمها تردِّد:

• **حياة البنت في كفة، وهذا بكفة.**

هل تستطيع حنان أن تتذكَّر أحاديث أمها عن نعمة مثلّثها ونقمته، وكيف يتحوَّل إلى حبل لشنقها، أوحبل لتقييد الرجل. بدا مثلث العروس ناصعًا ويشبه لعبة. أغمضت عينيها، لكنَّ العروس جذبتها وأجلستها في حضنها. وفجأة، وقفت وحملتها بقسوة، فأصدرت نأمة خفيفة، وشعرت بالنار تغلي في عروقها، وبآلام في المكان الذي تضغط عليه العروس. تمسكها من ردفيها وتفتح فخذيها وتحرِّكها بقسوة، أصدرت العروس تأوهات مكتومة. وفي تلك اللحظة شعرت حنان أنَّ ارتجاجًا يغمر جسدها، وأنَّ الرائحة النافذة والقويّة التي تخرج من الكأس الساخنة، تغيبها عن الدنيا، وارتمت على الأرض الحجريّة. فاقدة الوعي.

عندما أفاقت، لم تعرف ما حصل، العروس كانت مشغولة بنتف ما تبقى من زغب بطنها، والنساء انصرفن إلى تدليك أجسادهن بأنواع غريبة من الزيوت والطين، كل شيء كان كما

هو، سوى أنَّ حنان كانت ملفوفة بالمناشف، ترتجف من الخوف، وتتمدَّد على المصطبة جانب أمها التي ما تزال تنفث الدخان، وترمقها بقلق، والنسوة، يرشننها بعطر قوي، رائحته مقزِّزة وواخزة، جعلتها تسعل، وتبحث عن رائحتها الأولى والأخيرة، كما ستكتشف بعد ذلك.

في مساء اليوم نفسه، ارتدت فستانًا أبيض مزركشًا، وسارت بجانب العروس، وهي تشعر أنَّ ما حدث في جرن الحمام يشدها بجنون نحو العروس، لكن الأسى الذي استشعرته، وهي تحاول جذب انتباهها، جعلها تبكي.

حاولت حنان استعادة ذلك الصباح، مع المخلوقة الغريبة عليا. لم تشمّ روائح النارنج والورود والياسمين تلك التي كانت تغطي على كل البشاعات الأخرى، لكنَّ الرائحة كانت تهبّ من ذاكرتها. تمسك بيد عليا في الطريق إلى حمّام النسوان، وكأنَّ الزمن لم يتغيَّر. الأزقة على حالها، لولا اختلاف واجهات المحلات التجاريّة، وظهور البضائع على الأرصفة، لكنَّ النهر جف، والسور اختلف، سور دمشق وأبوابه السبعة.

تقدَّمت عليا، من دون أن تترك أصابعها. فتحت كفها المضمومة. كانت الكف سوداء قاتمة، وذات خطوط كثيرة، تليق بامرأة في الخمسين. سحبت حنان منديلاً، ووضعته في كفّها،

واستمرَّت في المشي إلى أن وصلت إلى الحمّام نفسه الذي جلست يومًا تحت قبته. في هذه المرة، انتبهت إلى ما فاتها عندما كانت في التاسعة: جدرانه مزركشة برسوم زرقاء، ومزجّجة ببعض الورود والأغصان، تتوسَّطه بركة صغيرة مطعّمة بالرخام والصدف الملون، تخرج منها نافورة مياه عالية، تصطفّ على جانبيها أصص النباتات من قرنفل ومنثور وفم السمكة، وعلى جوانب الجدران ترتفع مصاطب حجريّة، توضع عليها الوسائد والمخدات العريضة، فتبدو مثل مخادع ملكيّة، وتتوزَّع من حولها النرجيلات الملوّنة المصنوعة من الزجاج الدمشقي الأزرق، والمتفاوتة الأحجام، حيث تجلس النساء بعد الحمّام للتدخين، وهنَّ يلففن المناشف حول أجسادهن.

المعلمة التي تدير المكان، تجلس في الوسط، وراء طاولة عريضة، تراقب ما يجري، تصدر أوامرها وترحِّب بزبوناتها، بينما تقود النساء بناتهن لتتفرَّج عليهن الأخريات، أملاً في عريس، بعد أن تقوم النساء بوصف البنت في المجالس.

كانت الفتيات تصطف مع أمهاتهن وأخواتهن، تنتقي كلّ منهنّ جرنًا حجريًّا، تتقاسمه مع شريكة لها، ويفرك بعضهّن بعضًا، ويتناوبن على دلك أجسادهن بالطين الناعم لشدّ البشرة. وفي الزوايا تنتظر المكيّسات اللواتي يقمن بفرك ظهور النساء، بكيس أسود خشن ينزع الأوساخ ويُفتِّح المسام.

جميعهن عاريات، وتكتشف أنَّ كل النساء العاريات، يبدون أجمل من منظرهن المعتاد، وهن يرتدين الجلباب الأسود. بعض المكيّسات يداعبن أجساد النساء، ببذاءات يستعذبها بعضهن بصمت تام، وسط ضباب البخار، ولغط الأصوات. ترقب حنان من الجرن الساخن ما يجري حولها، وكأنَّه حلم، بينما تقود كفّها أصابع عليا يمينًا ويسارًا، على حلمتيها، ثم تهبط بها إلى تحت بطنها.

الرائحة التي خبأتها في قلبها عقوداً، عادت مع الخادمة الصغيرة التي أطاحت بسيادتها، ورمتها في العذاب.

تنظر إلى صورتها في المرآة. تضع يدها على فمها، كما كانت تفعل عليا، وتركض إلى الغرفة السفليّة، تفتح الباب بهدوء، ترى زوجها في ثياب نومه، ورائحة تشبه رائحة الموت تعبق حوله. تقترب منه على رؤوس أصابعها، تحدِّق في وجهه، وتشعر بكراهية مضاعفة نحوه، ثم تخرج، وقلبها يدقّ كطبل.

• **خانتني مع تمساح متفسخ.**

تقول بصوت واضح، وتسمع صوتها، تحدِّق بدموعها وتكتشف للمرة الأولى في حياتها، كيف يكون طعم الخيانة.

* * *

خطوات عليا باتجاه الشارع العريض، تتثاقل. ورغم ارتفاع الشمس في السماء، إلا أنَّها لم تلمح من البشر أحداً يشعرها بالأمان، عدا نباح الكلاب خلف أسوار الفيلات، وعواء ملتاع لأخرى شاردة مخيفة.

أهلكها التعب، وحقيبتها صارت أثقل بكثير. تلتفت إلى الوراء كل عدّة دقائق، وتلمح ما تبقى من ظلال، فلا تجد سوى الفراغ. تقاوم خوفها بطعم الانتصار، تفكِّر بالمرارة التي تعصف بسيِّدتها.

تشعر بوخز إبر حادّة تنساب ببطء من ركبتيها حتى رؤوس أصابعها، اتجهت نحو أقرب فيلا، تحيطها أشجار السرو العالية الداكنة الخضرة. اختارت بقعة خالية من العشب الأخضر ورمت حقيبتها، وهوت تحت جذع الشجرة. خلعت الحذاء العالي، ورمته بقرف، ومدّت ساقيها.

أرخت رأسها إلى الوراء، اصطدم بجذع الشجرة، تألّمت، وأغمضت عينيها. تشعر أنّها كتلة لزجة، معلّقة في الفراغ، وتحرقها عيناها، وأصابعها تتلاشى. قلبها يتحرَّك من صدرها ويخرج من أصابعها.

لم تزل غير مصدِّقة، أنَّ سيِّدتها طردتها. لطالما اعتقدت أنَّ سيِّدتها تحبّها إلى الحدّ الذي لا تستطيع العيش من دونها. إنَّها متأكِّدة أنَّ ما لمحته في عينيها من دموع ولهفة كان حقيقيًّا. كانت على ثقة من إحساسها بقبلاتها وأصابعها التي تداعبها وتنظِّفها وتحمِّم شعرها، وتبقى بين فخذيها تدلِّكها بالزيوت والعطور، وتمشِّط شعرها، وتقبِّلها من عينيها، وتضعها في حضنها. من الصعب عليها تصديق أنَّ الليالي التي كانت تخرج فيها من غرفة سيِّدتها عرجاء من ألم حوضها، وجهها متورِّم من العضّ، قد انتهت. كانت سعيدة بما تفعله بها. وكلَّما شعرت برغبة السيِّدة فيها تباغتها السعادة، وتتخيَّل أنَّ الهناء لن يفارقها.

في بداية التحاقها بخدمتها، كانت تنظر بريبة إلى السيِّدة التي تعود آخر الليل، وتتحرَّك في أنحاء البيت كتائهة. تخبِّط الأشياء حتى يطلع الصباح، ثم تستيقظ قبل مغيب الشمس. تحتسي قهوتها. تثرثر على الهاتف. تلعن عائلتها، وتسبّ زوجها التمساح، واليوم الذي رأته فيه، لكنَّها تتحوَّل إلى امرأة هادئة وصامتة بين الضيوف.

أخذت تلاحقها وتتابعها بفضول، وبمواربة من وراء الستائر، أو عبر ثقوب الأبواب، مثل قردة، تتنقل وتقفز بخفة بين أغراض البيت، وتتوارى وراء الأثاث حين تلمحها، وتخشى البقاء مع طباخة المنزل في مكان واحد، فتأخذ طعامها وتلفُّه بمنشفة خاصة، وتجلس على الأرض إلى جوار السرير وتأكل. كانت تخجل أن تأكل علانيّة.

انتظرت بدأب، يومًا وراء يوم، أن يأتي أبوها أو تأتي أمها. تجلس على الدرجات الحجريّة، تسند خديها بيديها، تحدِّق في البوابة الحديديّة دونما حركة، مثل قطعة خشب يابسة، حتى تناديها حنان. تحدِّق في نقطة فراغ، وتحوِّل النقطة إلى مسرح كبير. تتحرَّك فيها أمها مثل دمية، تناديها وتعاتبها، تصرخ، فينتفخ وجه عليا بغضب أخرس. تلمح عن بعد، وفي زاوية مظلمة، فراشًا صغيرًا يخرج منه نشيج، وتتحرَّك فوقه مؤخّرة غامضة. تشيح بوجهها، لكنَّها تسمع النشيج، فتغمض عينيها وتدخل إصبعيها في أذنيها. تسمع النشيج داخل دماغها. ومع مرور الأيام، صارت تراقب البوابة من النافذة. وطوال النهار تزيح الستائر وتسترق النظر، وحين تلحّ السيِّدة:

• **لماذا تظلين واقفة أمام النافذة؟**

تكتفي بهزّ رأسها والابتعاد بسرعة.

كانت لا تنتبه لما يحدث حولها. تتحرَّك بتلاش كالسائرة في نومها. بالكاد تلامس أصابعها الأرض. وإذا صدرت عنها بعض الأصوات، وهي تجلي الصحون أو تلمِّع الأواني الكريستاليّة والفضيّة، تشعر بقبضة خوف، وتقضي بقية النهار تعيسة. كانت كائنًا غير موجود، حتى استمدّت من جسد حنان وجودها وثقتها بنفسها. أليست قادرة على إسعاد سيِّدة بهذا الثراء والجمال؟!

في إحدى الليالي، طلبت السيِّدة من عليا كأس شاي بالقرفة. عندما دخلت به كانت السيِّدة في حوض الاستحمام بالغرفة. أمرتها بخلع ملابسها والاقتراب لمساعدتها. شدّتها إلى الماء، وعضَّتها من رقبتها حتى شعرت بطعم ملوحة. كانت عليا مذهولة بينما تواصل السيِّدة تقبيلها، وهي مثل فأر فاجأته نظرة القط، متسمِّرة لا تفعل شيئًا. بدأت السيِّدة تقبِّل أصابعها، ثم قادتها بتخبُّط، إلى أماكنها السريّة، حتى هدأت تمامًا، وهمست لها بأمر قاطع:

ـ إذهبي.

عند هذه اللحظة فقط استيقظ حسّ التوحش بداخلها، فهاجمتها بقسوة. ونجحت في جذب سيِّدتها إلى الفراش، وهي تكمِّم فمها بيدها، تجنُّبًا للصراخ. لكنَّ النجاح الأكبر الذي

تأكَّد، أنَّها تربَّعت على عرش حنان، عرش من الحب العنيف أو الكراهية. كراهية داشرة لا تلوي على شيء.

كانت أكثر من هانئة بقوة الكراهية. ولم تتوقّع مجيء لحظة تطردها فيها حنان إلى الشارع، لتُعاني من لسع الذباب الجائع لساقيها ووجهها. تذكَّرت اليوم الذي قادها فيه والدها وسط الأزقة، ورمى بها في البيت الملوّن، كما يحلو لها تسميته. كانت تشعر باستياء من أمها، لأنَّها جعلتها تعيش في خدمة السيِّدة وحيدة، ولأكثر من عشر سنوات دون السؤال عنها. ومع مرور الأيام، تتذكَّرها بامتعاض وحقد، وتحاول استعادة صورتها بأبشع ممّا تتخيَّل من قبح، فتعود الأم في صورتها الأبهى: ابتسامة شاحبة.

أخذت تتأتئ بصوت مبحوح، ثم ينفلش صوتها في الفضاء. تأخذ نَفَسًا عميقًا، وتشعر أنَّ حلقها يابس. تنظر إلى الأخضر الكثيف من أسفل الشجرة. عيناها تستقرّان بين وريقات الصنوبر الصغيرة. تقرط شفتيها، تعضهما بقسوة، فتشعر بملوحة.

يتمدَّد الصمت. تفتح عينيها على اتّساعهما. عينان فزعتان، غائمتان، لا تلمحان سوى سقف أخضر تتخلَّله نثرات ضوء بنفسجي. تغمض العينين بهدوء واستسلام، تشعر بتعب

شديد. ترخي رأسها على الحقيبة، وتنسلّ بجسدها نحو الأرض، ثم تستسلم، وهي جالسة لنوم مفاجئ. تغيب في الحلم وسط جدران معدنية عالية خضراء. تحمي وجهها باليدين. أكياس سوداء تسقط فوق رأسها مثل حبات المطر. الأكياس تنهمر بغزارة، وتمنعها من الركض والجدران المعدنية تضيق، تهرسها، ويظهر من تحت الأرض، جدار معدني أخضر. ليس جداراً إنّها حاويات الزبالة.. تصرخ ولا تسمع صوتها. تلمح عينين تحدِّقان في الظلام، تهرب إليهما. تكتشف أنَّ السيِّدة تقف فوق العينين، فتهرب منها، تطير السيِّدة حنان فوق رأسها، تصرخ بها، تعوي، ويتحوَّل صوتها إلى ما يشبه مواء القطط في حارة الرمل. تختبئ عليا تحت الأكياس السوداء، فتخرج الروائح الكريهة، وتغطِّي وجهها بكفَّيها، تتحوَّل الأكياس إلى بحر من القاذورات، وتختنق عليا. تفتح عينيها، وتستيقظ من الكابوس. تتنفَّس الهواء. تشهق، وتسمع النشيج القادم من السماء، تلمح عينَي الأخت المفتوحتين على الفراغ تمامًا كما كانتا في تلك الليلة!

الليلة التي عادت فيها من المدرسة، وفوجئت بعبّود فوق أختها العاجزة، لم تر وجهه، رأت عينَي الأخت. عينان فارغتان، تشبهان عيني أمها حين كانت تراقبها تئن تحت ثقل أبيها. لماذا تتحوَّل عيون النساء إلى فراغ مفتوح تحت أجساد الرجال؟

كانت ترى، رغم الظلام، كيف أنَّ الأم تهرب بعينيها بعيداً عن وجه زوجها، وكأنَّها تستغيث. وعندما ينزل عنها وتذهب إلى الحمّام، وتبدأ طرطشة المياه، تعرف أنَّ وقت النوم قد حان. الأخ الصغير يقول لعليا:

• **هكذا يأتي الأولاد.**

تصفعه عليا على فمه ليصمت حتى لا ينكشفا، ويقوم أبوها بسلخ جلديهما بحزامه الجلدي، ويضعهما في الحمّام قرب الحفرة السوداء. كانت هذه طريقته الأقل صرامة في العقاب. فعندما ضبط أخاها، وهو يتلصّص عليه ليلاً، انتزعه من الفراش. وأسنانه تصطك من البرد والخوف تحت الأغطية الصوفيّة، لكنّه لم يأبه حتى لأصوات الريح التي تخلفها صفائح التنك التي تحمي سطح الغرفة. عرّاه من ملابسه، وقذف به في الظلام، وأغلق الباب.

كانت عليا تسمع صوت بكائه، وتضع أصابعها في أذنيها، وتغمض عينيها تحت الغطاء. البكاء يزداد، والأم صامتة، والأخوة الذين لم يغمض لهم جفن، صامتون. لم تحتمل عليا سماع المزيد من البكاء، فنهضت فجأة من فراشها، وأخذت ملابس أخيها الملقاة على الأرض، ثم دخلت إليه. كان لونه أزرق، وبالكاد استطاعت رؤية زرقته السوداء، لأنَّ الضوء كان

خافتًا، وهي تحاول أن تنفخ في يديه لتبعث بهما القليل من الحرارة. شعرت بارتجاج حادّ في رأسها، ولم تكد تشعر بما حدث حتى رأت نجومًا في عينيها، وجسد الأب الضخم يمسكها مع أخيها، وينزع عنهما ملابسهما. كانا يتأرجحان في قبضته مثل فأرين. ثم رماهما في الحمّام. فقدت عليا وعيها لدقائق، في اللحظة التي رأت فيها الحفرة العميقة التي صارت تنفخ في وجهها عيونًا حمراء متوهجة. ارتطم رأسها بحافة الحفرة السوداء التي تخرج منها الشياطين والضبعة التي تخبرها أمها أنّها تسرق الأولاد وتحشرهم بين فضلات الناس، وتحوّلهم إلى حشرات صغيرة. تحاول تلمُّس العتمة، وهي تبحث عن أخيها. وتسمع نشيج الأم، وهي تبربر بكلام غير مفهوم، وتشمّ رائحة سيجارة الأب.

عادت الذكرى تؤلمها، كأنّها حدثت للتوّ، فعرفت أيّة جنّة فقدت هذا الصباح. وظلّت ساكنة تحت جذع الصنوبرة العتيقة، تتمنّى أن تنتهي حياتها هنا.

* * *

الأذرع الطويلة عادت إلى النمو مجدّدًا. أذرع طويلة تخرج من تحت الثديين. تلتفّ حول جسد حنان. أثداء تخرج من خاصرتها، من بطنها. تركض في ممرّ أسود طويل، تقف أمام مرآة طولانيّة. ترى في المرآة الأذرع والأثداء. تصرخ، فتفيق من نوم دام دقائق.

تكتشف أنّها لم تزل في سريرها، تتلمّس جسدها. لا تعثر على الأذرع. واستغربت كيف يعاودها الحلم بهذا الإلحاح. لماذا لا يكون ما شاهدته حلمًا هو الآخر؟! صورة عليا العارية فوق زوجها التمساح، لا تفارق خيالها. تبكي وطعم الحامض يغص حلقها، وهي تستعيد صورة الجسد الأسمر اللامع الذي صنعته ولمعّته في أحضان تمساح متحلّل.

تحاول إيجاد أعذار للخادمة التي منحتها السعادة.

• أنا أمرتها بأن تلبي أوامره.

أيّة أوامر؟! كنت أريدها أن تطعمه، تسقيه، تغيِّر الشراشف قبل أن تتبلَّل بزناخة عرقه التي تشبه رائحة الموت، لا أن تستلقي بأحضانه.

● ربما أجبرها على فعل ذلك!

تحاول إقناع نفسها، لكنَّها تعرف أنَّ زوجها لم يكن ينتظر إلاّ الموت. الانتظار الذي حفظته عن ظهر قلب، وشهدته مع موت أمها وعمّها.. لوثة وراثة تجري في دماء عائلتها، عرفتها ولم تعد تقلقها، وربما لم تعد تهتمّ بها. هي نفسها رأت في الموت خلاصًا لها. وبشكل ما كانت تنتظره أيضًا، لكنَّها نسيت ذلك بعد أن أخذتها نازك إلى أقاليم المتعة السرّيّة، وبعد أن تولّهت في عشق الخادمة التي سمعت الليلة طقطقة عظامها، وهي تلهث فوقه، وتمص جلده بلا كلل.

الإنهاك العصبي قاد أعضاءها إلى الخدر. تشعر بحاجة إلى النعاس، لكنَّها تخشى أن تفيق على ذات الحلم. هبطت السلم ثانية، مسرعة إلى المرآة الطولانيّة، كما فعلت قبلاً، وأضاءت الأنوار، وحدَّقت في وجهها الشاحب، تلمَّست خدَّيها، وهي تحدِّق مرهقة في وجه المرأة العجوز بالمرآة. هالتان سوداوان تحيطان بعينيها، رأسها الصغير يتّكئ على أكتاف هزيلة، شعر قصير واقف مثل إبر الحديد. مسَّدت شعرها، بقي على حاله. كان وجهها مضحكًا، مثل صور أفلام الكرتون المتحرِّكة.

خمّنت أنَّها ما تزال تحلم، وإلاّ كيف سيقف شعر رأسها بهذه الطريقة الهزلية، فيبدو مثل ظهر قنفذ. ابتعدت عن المرآة بضع خطوات، ودارت حول نفسها، وتأكَّدت أنَّ الاستطالات لا تخرج منها.

تقف وتتلوّى من ألم معدتها. تشعر بغيرة قاتلة، وتتخيَّل تفاصيل جسد خادمتها. تستطيع تخيُّل كل مسامة فيها، كل ندبة، وكل شامة، كل شعرة، كل انثناء، استدارة ثدييها، انحناء عجيزتها، ارتفاع ردفيها، الانسياب المفرط لفخذيها. كل ما فيها محفوظ في قلبها، حتى لمعان عينيها، الذي كانت تخافه أحيانًا عندما انقلبت الأدوار بينهما. كانت تحفظ كلّ شيء. ولأول مرة تنتبه، وهي تحدِّق في المرآة أنَّ السنوات الطويلة التي جمعتها بعليا، كانت خالية من أيّ حديث. في النهار تكون عليا صامتة، تتلقّى أوامرها بهزّة خفيفة من رأسها. والكلمة الوحيدة التي تستعيد من خلالها، صوتها، كانت: سيِّدتي.

تندهش من اكتشافها المتأخِّر: صوت عليا لم يبق منه سوى تلك الكلمة. تبحث في ذاكرتها عن حديث دار بينها وبين خادمتها، فلا تجد. تحاول تذكُّر الصوت، فلا تفلح.

وصلها رنين الهاتف الجوّال من غرفتها. من سيتصل بها في مثل هذا الوقت؟

صعدت متثاقلة، تخشى الردّ، ولديها في الوقت نفسه فضول لمعرفة من يتّصل في هذه الساعة.

عندما وصلت، كان الرنين توقف. كانت نازك. ولم تلبث أن عاودت الاتصال. أخذت تنظر إلى الهاتف بخوف. نازك الآن ستجعلها تفقد عقلها، ستكتشف سرّها، وربما تشمت بها.

الهاتف يواصل الرنين، تلتقطه، ثم ترميه.

يعلو صوت نازك في رأسها، وتحاول تلمُّس ما يجب فعله لاستعادة عليا. تستعيد بحّة نازك في تلك السهرة التي أعدّتها لكارولين الرسامة، عشيقتها الجديدة، دون أن تتخلّى عن مطاردة حنان. كانت في تلك السهرة، تقول بصوتها المبحوح: كأس أخيرة، ثم تصبّ كأس الفودكا المفضّلة لديها. تقترب إلى حدّ وضع صدرها عاريًا، لِصْقَ ذقن حنان. تنظر في عينيها وتصبّ الفودكا على صدرها، فتصرخ من برودة الثلج، وتضحك نازك مع صراخها، وتميل إلى حنان المبتلّة، وتقبلها من شفتيها، وتتشمّمها. تتجاهل حنان نظراتها الملتهبة، وتحدّق في الفتاتين الممدّدتين على الأريكة المجاورة. تعاود نازك الضحك.

• خائفة يا عصفورتي؟

لا تعلّق حنان. كانت كارولين وفاطمة بعيدتين جدًّا عنهما. في أرض أخرى. تحدّق كل منهما في الأخرى. تقتربان،

دون أن تتلامس شفاههما، لكنّهما قريبتان إلى الحدّ الذي لا يتجاوز مسافة الشعرة الرقيقة. تحدّق حنان فيهما، تشعر أنّها في مكان غريب، فرغم كلّ السهرات التي رافقت فيها نازك، كانت هذه هي المرة الأولى التي تشعر أنّها في عالم آخر. ربما لأنّها ممتلئة بعليا، وربما لأنّها شعرت بمحاولة نازك التقرُّب من امرأة أخرى، وربما بسبب الشموع الكبيرة التي وزعتها نازك في جهات الصالون الأربع، وأضيئت في طبقاتها الثلاث الحلزونيّة. اعتادت جلب شموعها من كافة أنحاء العالم، ودفع مبالغ طائلة لقاء ذلك. فهي لا تحب ضوء الكهرباء ليلاً، وتستخدم الشموع المتناثرة في كل متر من بيتها، لكنّها في تلك الليلة لم تشعل الكثير منها في قصرها الصحراوي، لأنّها أرادت أن تكون أشكال الأشياء مبهمة. لا تريد أن تتحوَّل الجدران إلى عيون تنظر إليها، عيون لوحات كبار الرسامين المهووسة باقتنائها والجلوس لوقت طويل معها، وهي تشرب قهوتها وتحدّق فيها بإعجاب كبير. أخفت كل الأشياء بالظلال، مع أنّها مولعة بالتحف الثمينة، والتماثيل العاجيّة الضخمة الموزّعة بين الزوايا.

على الرغم من الضوء الضعيف، استطاعت حنان أن تنتبه إلى كنبة جديدة أضافتها نازك. طويلة وتقترب من عرض سرير. قوائمها محفورة بالعاج وخيوط الفضّة والذهب، وظهرها القائم يصنع شكلاً منحنيًّا يشبه صندوق الكمنجة، ولونها بين الأصفر

والأحمر، وإحدى واجهاتها لها مسند طويل، والجهة الأخرى فارغة، فتبدو مثل عربة ملكيّة.

تخيَّلت عليا ممدَّدة على هذه الأريكة، وشعرت برجفة تسري في أوصالها، عندما بدأ طيفها يتمايل أمامها. تأكَّدت أنَّها حزينة أكثر من قبل، وهي تحلم بها في يقظتها. كانت تشعر إلى أيّ حدّ اعتنت نازك بحضورها من خلال الورود البيضاء التي تحبّها؛ القرنفل الأبيض، السوسن الأبيض، الجوري الأبيض، الزنبق الأبيض، الفلّ الأبيض، الياسمين الأبيض.

لكنَّ ذلك لم يفلح في لفت انتباه حنان أو استمالة قلبها الذي تركته في بيتها مع عليا. كانت تختنق حبًّا ورغبة في خادمتها. أخذت تتحرَّك ثملة، تنظر إلى ما يحيط بها، فتحب أن تبقى في مكانها. تعرف أن جسدها لا يكذب عليها، هي ليست المرأة التي كانت!

بالكاد تدرك ما يجري حولها. أرادت الطيران بعيداً عن المكان، أن تكتشف، وهي تدور وتضحك مغمضة العينين، مَنْ سيبقى لها في غيبوبتها تلك، ما الذي سيبقى لها؟ أصابع عليا؟ شفتا نازك؟

رأسها يشبه نقطة عميقة في محيط بعيد، انفصل عن جسدها، مثل غريق، تحلم بالنقطة الأعمق في الدوّامة. ولولا

نازك التي سارعت إلى تدارك سقوطها، لارتطم رأسها بالأرض. جرَّتها نازك إلى الأريكة، وضمَّتها بقوة إلى صدرها.. لطمتها برفق على خديها، وهي تهمس:

• **حنان حبيبتي**.

لم تسمع. وأحسّت نازك أنَّ حنان تتسرَّب منها، ولم تحتمل هذه الفكرة. أضاءت كارولين أنوار الكهرباء، وبدا وجهها شاحبًا، وهي تراقب نازك التي بدا شغفها بحنان واضحًا، وضوح البرود الذي تقابلها به. ولم تستطع أن تخبرها الآن بما يجب أن تقوم به، وبما يجب أن تنتبه إليه. فلم تكن المرة الأولى التي تهجرها فيها إحدى حبيباتها. الحبيبات اللواتي يرغبن بالزواج أحيانًا، أو اللواتي يقضين ليلة أو ليلتين معها من أجل إرضائها فقط، أو حتى يتحوَّلن إلى ضيفات دائمات في صالونها. لكن حنان كانت من نوع مختلف. ونازك تعرف أنَّ حنان منحتها جسدها للرغبة فيها، وليس من أجل الوصول إلى مصلحة. تعرف ذلك وتقدِّره، وتزداد تعلُّقًا بها، وترتِّب حياتها على تفاصيل ما تشتهيه وما ترغبه.

أمسكت أصابعها، ودلَّكتها ثم نزعت حذاءها، ورفعت رجليها، وجعلتها تستلقي، ووضعت رأسها في حضنها، وجلست بعيون مخضّلة بالدموع، تمسح على جبينها برفق،

وتتفحّص تغضُّنات الألم التي تظهر على وجهها. وقفت كارولين وفاطمة تراقبان المشهد بتأثر. فجأة أجهشت كارولين بالبكاء وهي تتأتئ:

• **كم نحن بائسات.**

وصبّت لنفسها كأسًا لم تقربها. كانت السهرة تذهب في طريق لا عودة منه.

• **أنا خائفة.**

قالت فاطمة، وهي تقضم أصابعها وتتلفَّت حولها، وكأنَّها ملاحقة من قاتل. طوَّقت كارولين رقبتها، واختلست قبلة من شفتيها. لم تستجب فاطمة، وهي تراقب حنان التي بدأت تفيق من غيبوبتها، ونازك تحيطها بذراعيها، وتساعدها على النهوض. تنهَّدت بارتياح وهي تراها جالسة، تفتح عينيها ببطء. كانت عائدة من عالم آخر، وشعرت أنَّ كل ما فات من حياتها لا يشبهها. نظرت إلى نازك تبحث عن شخص تعرفه، ولم تمهلها كارولين لتسأل ما الذي حدث!

صفَّقت نازك بيديها: لنشرب قهوة. هزّت حنان رأسها بالموافقة، وقامت نازك لتحضِّر القهوة. فقد صرفت الخادمات كعادتها في سهراتها. عادت همسات فاطمة وكارولين تعلو وتخفت. كارولين تمسك بوجه فاطمة وتحضنه بين كفَّيْها: أقسم

لك، لن يحدث ذلك. لن أجعلك عرضة لأيّ خطر. وكل ما يحدث سوف ينتهي.. تزوَّجيه. أعرف ما الذي تعانيه عندما ينظرون إليك وأنت برفقتي. تزوَّجيه، وسأرضى بما يحدث. سأكون إلى جانبك.

• **هل أنت جادّة؟**

تقول فاطمة: كل الجديّة. سنلتقي دائمًا. عليك أن تعديني فقط بالبقاء معي. نستطيع تغطية الأمر. صدِّقيني.

انتشرت رائحة القهوة، وأفاقت حنان عليها. كانت كارولين وفاطمة غارقتين في قبلة عميقة، تحاول كل منهما احتواء الأخرى، ثم انسحبتا بهدوء من الصالون إلى الغرفة الجانبية. حنان صامتة، ترتشف قهوتها، ونازك تراقبها باهتمام.

• **هل أنت مرتاحة؟**

هزّت رأسها بالموافقة، وأشعلت نازك سيجارة لها. الصمت شديد، وبالكاد تسمع بعض الأصوات التي تخرج من الغرفة الجانبيّة. ليست أصوات رغبة. تشبه صوت حيوان يحتضر. الصوت المخيف المتزامن مع شهقات خافتة، جعلت حنان ترتجف من جديد، وتطلب من نازك الصعود إلى الطابق الثاني. أمسكت بيدها، تقودها كطفلة تائهة إلى الدرج. تصعدان ببطء. وفي كلّ مرة تقومان بتجاوز بضع درجات،

تسرق نازك قبلة من شفتيها، من رقبتها، من عينيها. تضحك حنان، وتبادلها قبلاتها، بعضات مؤلمة، تردّ على مداعباتها من دون أن تشعر بالامتلاء بها، ربما غيرة مما سمعته بين كارولين وفاطمة. كانت نازك مستعجلة لتنتهي من حريق رغبتها، ولا تخلو مداعباتها من عنف يفضح إحساسها بالعجز عن امتلاكها.

الهاتف يواصل الرنين ويضيء سطح المرآة. وحنان لا تردّ. تتلمَّس رقبتها وتتذكر أثار قبلات نازك في تلك السهرة، فتشعر بحزن أكبر. حزن جعلها تتأكَّد من أنَّ مشاعرها محسومة لصالح عليا. تتذكَّر الكنبة الجميلة التي سألت نازك عنها، وتمنَّت أن تشتريها يومًا لحبيبتها. تلوم نفسها لأنَّها طردتها. ماذا تضير مصمصتها لجلد تمساح عجوز؟ أليست أكثر إخلاصًا من نازك التي تلحّ دائمًا لتكون واحدة من عشيقاتها؟!

* * *

الشمس تسخن، فيختلط العرق بالتراب، على جسم حيوان جريح يجرجر حقيبته. عليا التي قضت نصف عمرها في النتانة، عاشت النصف الثاني منعَّمة، حتى لم تعد تحتمل ملمس السائل الدبق على جبينها وتحت ملابسها وفروة رأسها.

سعادتها باللعب داخل حوض الاستحمام، لم يكن يعادلها إحساس آخر. ولم يضعف الاعتياد من هذه السعادة اليوميّة. تفرك ظهر سيِّدتها، وتدلِّك جسدها، وتكتشف جمال جسدها الأسمر عندما يتطابق على شُقرة السيِّدة، تنتبه عندما يلمع تحت رذاذ الماء ويتفتَّح بالبخار. تلامس رغبات سيِّدتها بكثير من الرضى، وتتجرّأ أحيانًا على خلع ملابسها والاستحمام قبل السيِّدة. تملأ الحوض ذا اللون الأبيض، بالماء والزيوت المعطرة وأوراق الورود اليابسة، كما اعتادت سيِّدتها أن تفعل، تنظر إلى صورتها في مرآة الحمام، وتكتشف أنَّها لم تعد كما كانت، وهي ليست عليا. تنزلق في الحوض، وتغمض عينيها، وتتبعها

السِّيدة، تتبادل معها الأدوار، تدلكها، وهي تتأمَّل نهديها المشدودين، ترسم خطوطًا على فخذيها، قبل أن تجفِّفها بالمنشفة السخية، وتسحبها إلى سريرها.

السرير أكثر من مناسب للشعور بالأمان الذي عوَّضها عن الليالي البشعة في حيِّ الرمل. وصارت تتخيَّل أنَّها لم تولد في ذلك الحي، وأنَّ السِّيدة صنعتها من جنون رغبتها.

تغمض عينيها على الطريق، وتتشمَّم بدلاً من الدخان الذي تنفثه السيارات، رائحة القرفة. تهذي بالرائحة التي كانت تنتشر، عندما تتسلَّل أصابع السِّيدة إلى أصابعها لتقودها. كانت رائحة القرفة تفوح حتى تملأ المكان، وأصابع عليا تنشرها ببراءة كاملة. حنان مغمضة العينين، وتهذي بالرائحة، وأصابع عليا تقوم بفرك جلدها. تشعر أنَّها لم تعد تملك زمام أمورها، فتحتلّها من أخمص قدميها حتى أعلى رأسها، تمسك أصابع عليا، وتطلب منها التوقُّف بجملة مبحوحة، وترتخي. تنظر في عينيها، فتقول لنفسها:

• **هذه فتاتي.**

تعبُّ نَفَسًا عميقًا، وهي على وشك الاختناق من فرط رغبتها. وكانت تجد في هذا تسلية لها، لكنَّها الآن تشعر بخوف من الرائحة، من ملمس الحرير في عالم لم يعد لها. عليها أن

تستعد لاستعادة حياتها الأصليّة التي تصوَّرت أنَّها غادرتها إلى الأبد.

تتحسَّس السكين الحادّة التي تخفيها في ملابسها، بينما تمضي وحيدة في الخلاء، مطرودة من جنّتها، سكّينها التي بحثت عنها عندما اقتنصتها السيدة للمرة الأولى. اعتقدت أنَّها تخنقها، وفكَّرت، وهي تعلوها، أن تعضّها وتخرمشها كما تفعل مع الصِبْية في حيِّ الرمل، لكنَّ اللذة كانت أشهى من مقاومتها، لذّة المداعبات التي تشعرها بفوران يحوِّلها إلى حيوان يحتاج للعضّ.

تفكِّر الآن أنَّها تستطيع التهام الرجال والنساء بالرغبة والقوة نفسها. تعلَّمت ما يكفي! كانت تردِّد لنفسها، وهي ما تزال تمشي في طريقها، تعلَّمت أن تنتظر بهدوء ما تريده. وقد فعلت ذلك؛ صارت سيِّدتها رهن رغبتها، وسيِّدها رهن ألعابها، وتحوِّل البيت الكبير الذي عاشت فيه إلى قصر لها، تُحرِّك فيه البشر كما يحلو لها. في النهار لم يكن الأمر يهم، فهي بالكاد تنظِّف ما يحلو لها تنظيفه. لم تعد حنان تحاسبها على شيء. ولكن في الليل، تختلف الأمور. لم تكن بحاجة إلى سكّينها، كانت فقط بحاجة لتعلُّم المزيد من الألعاب مع حنان. ينتفض جسدها برعشة، وهي تفكِّر بمداعباتها. لا تنسى تلك الليلة التي حملتها فيها، وجعلتها تتدلَّى وتتأرجح بين فخذيها. تقف

قليلاً، تضع يدها على جبينها، تُغرق النظر في طريق بلا نهاية، وتعشى عيناها ثانية، ثم تتابع المشي، وهي تكاد تعرِّج، وتلهث من التعب.

لم تكن سعيدة ولا تعيسة، ولم تشعر بما هو استثنائي. غير أنَّها كانت المرة الأولى التي يغمرها فيها مخلوق بهذا الحب. لم تسأل نفسها إن كان مشروعًا أو غير مشروع، ما تفعله، وصارت تنتظر الليل الذي تطلبها فيه بصمت، وتعرف من النظرات، ما الذي سيحدث، لأنَّ أوقاتًا كثيرة كانت تقوم فيها بتدليكها، دون أن تعيرها حنان انتباهًا، لكنَّها ما إن تنظر بعينيها حتى تفهم ما تريده. وبقيت على هذه الحال حتى اليوم الذي عادت فيه السيِّدة إلى البيت، في وقت متأخِّر، وكانت عليا نائمة. دخلت حنان، تصفر بلحن حزين، وأيقظت عليا، سحبتها من غرفتها، وضاجعتها. استغرقت عليا في النوم، ولم تصحُ حتى الصباح، عندما كانت طباخة المنزل تطرق باب الغرفة. ذُعرت حنان، وهي ترى عليا إلى جانبها، وتسمع طرقات الباب، والشمس تضيء جسمها بتفصيل فاضح. طلبت من الطباخة التي تنتظر وراء الباب الانصراف. وحملقت في وجه عليا الخائفة، وتحوَّل وجهها إلى لون ليمونة، فنظرات السيِّدة كانت غاضبة مخيفة.

وقفت عليا بعريها أمام حنان. كانت السيِّدة تلوِّح بيديها و تسبّها وتشتمها وتركض في الغرفة تبحث عمّا يستر جسمها، وتخبِّط على رأسها الذي يضجّ بالصداع. عليا لم تتحرَّك من مكانها. جامدة ولا تعرف ما الذي يحدث، وما سبب ثورة سيِّدتها، وأيُّ خطأ اقترفته حتى صرخت فيها:

- **كيف تسمحين لنفسك بالبقاء في فراشي حتى الصباح؟**

نظرت عليا بذهول إلى السيِّدة الغاضبة، وهبَّت واقفة من فراشها، وارتدت ثيابها، وعيناها توشكان على الانفجار. انسحبت من الغرفة، وعندما أقفلت الباب عليها، ارتمت على السرير، وصارت تنشج بصوت عال. استيقظت فيها شراستها الحيوانيّة.

قرَّرت من حينها، أنَّها ستجعلها تدفع ثمن إهانتها غاليًا، دون أن تضطر لمغادرة المكان، أو أن تتحوَّل إلى متسوِّلة، يضاجعها المتسوِّلون.

بدأت التحرُّش بأنور. كانت تتعمَّد المرور أمامه، والانحناء فوقه لالتقاط شيء من جانبه أو لفتح ستائر النافذة. تنشغل قليلاً بتنظيف حمّامه، وتخرج نصف عارية، و تهمهم بصوت عال، فيفتح عينيه، ويبقى جامداً بلا حراك، يراقب تفاصيلها، وهي تتنقل في غرفته. بعد ذلك، عندما شعرت أنَّه

يراقبها، صارت تطلق أصواتًا غريبة تشبه مواء القطط، الأصوات التي تعلّمتها وهي بين ذراعي سيِّدتها. وفي مرات أخرى، تتعمّد التعثُّر بقدميه، تتنهَّد وتعتذر، وتمسح ثيابه برقّة، وتهزّ عجيزتها أمامه بفرح. وكان صامتًا يحدِّق فيها بفزع. ولم يبق على حاله طويلاً، إذ تمكَّنت الخادمة من إنعاش صوت رجولته الواهن البعيد.

أفلحت في جعل حواسه تستعيد جزءاً بسيطًا من القوة، الجزء الذي لم يسمح له باشتهائها، كما أرادت وحاولت، وعليا لم تيأس. تتابع ألعابها مجرد انتقام من حنان، بل أعجبتها فكرة امتطاء سيديها النهاريين، تعبث بهما، كأن تجعل السيِّدة تجلس أمامها على أطرافها الأربعة، وفي اليوم نفسه تلعب مع السيِّد الألعاب نفسها. تتابع ألعابها ببساطة، فالأمر لا يتجاوز مساحة السرير، المساحة الوحيدة في حياتها كلّها التي شعرت فيها أنَّها ملكة المكان.

اعتادت حين تنهض من سريرها صباحًا، أن تبقى واقفة أمام مرآتها. تحدِّق في وجهها. تمسك بأصابعها طرف ذقنها، ترفعه للأعلى. تبتسم، تضع يدها على كتفها، وكأنَّها تحمل وشاحًا ترفعه على خشبة مسرح، وتردِّد عاليًا:

• **الآنسة عليا!**

تستدير باتجاه باب الغرفة، وتقول: بدأ النهار. وفي الليل تستأنف سيادتها في سريرين بطابقي الفيلا، باختلاف طفيف. كان أنور من يصمت، وعليا تثرثر، وخاصة بعد أن شعرت بقوتها. أمسكته من باب الجرح الذي خرَّب حياته. مع حنان يختلف الأمر، صارت تلتزم الصمت، وتعرف أنَّ ذلك يعذِّب سيِّدتها. لم تعد تصدر في حركاتها معها عن لامبالاة، ولا عن حب. كان الأمر أشبه بمعركة حربية. ثأر السيادة الذي ترد به عليا على إهانة حنان التي لفظتها مرة بعيداً عن سريرها، لكنَّها لم تطردها إلى الشارع، كما طردتها اليوم.

عندما طردتها حنان من فراشها، لم تعد إلى طلبها لليال طويلة. حتى يئست، واستغرقت في نومها اليومي. وذات ليل رنّ جرس الغرفة، وكان صوت الجرس كافيًا لتنتفض، وتعتريها برودة في أطرافها. قفزت من فراشها، وفتحت باب الغرفة، ومشت على رؤوس أصابعها. كانت عادتها أن تفتح باب غرفة حنان دون أن تطرقه، لكنَّها تريَّثت، حتى خرج صوت سيِّدتها مشروخًا من الداخل:

• **افتحي الباب.**

فتحت وخطت باتجاه السرير. كانت سيِّدتها تستلقي على ظهرها. لم يبد منها سوى عينين مشتعلتين مثل عينيْ قطّة

في ليل داكن. شعرت أنَّ جنيًا يتلبَّسها. وقفت ترتجف. ضحكت حنان:

• خائفة؟

مدَّت يدها، فانصاعت عليا، واقتربت من السيِّدة التي جذبتها بنعومة. كانت عليا تريد أن تصفعها وتضربها بسكّينها، وتترك الفيلا، وتذهب إلى غير رجعة، لكنَّها استسلمت لها.

كانت لحظة تذكرها عليا، وستظلّ تذكرها لزمن طويل، عندما شعرت أنَّ جسدها يتفتح باستطالات غريبة، وهي تتذكَّر الأحاديث الطويلة في سهرات الشتاء الباردة، عن النساء اللواتي تُكسَر عيونهن من الرجال، وكيف كسر «ساسوكي» عينها مرة، وكيف كسر عبود عين أختها مرات. تكتشف فجأة كل الأشياء التي مرّت، دون أن تشعر برغبة لفعل ذلك، لكنَّها الطريقة الوحيدة التي سترسم بها خرائطها وألعابها. قلبت سيِّدتها بعنف، وبطحتها تحتها، كما كان يفعل أبوها بأمها، وهي تسترقّ النظر تحت الغطاء، وشعرت بقوة. صرخت حنان، وهي تحدِّق بخادمتها التي لم تمهلها. غضب حنان الوشيك تحوَّل إلى تأوُّهات بين قبلات عليا وعضّاتها. لم تعرف عليا ما الذي كانت تفعله، مدفوعة بشبق وألم. كانت تنتظر أن تنتهي سيِّدتها من ارتعاشاتها وصرخاتها، لتبدأ ثانية.

حنان التي صارت تصل إلى الإنهاك العذب، كانت تعرف أنَّ الخادمة تغيَّرت، وأنَّ لا سبيل إلى استعادة قلبها. تتلقّى عنفها برضى، لكنَّها تستدعيها كل ليلة بأمل أن تلمح شيئًا من الحنان بعينيها الشرستين. وكانت عليا بحسّها الحيواني، تبالغ في الشراسة، كلّما بالغت سيِّدتها في التودُّد والخضوع.

ليلة أمس، تركتها تغطُّ في نومها، وسحبت سيجارًا طويلاً مما تجلبه حنان تدليلاً لها. أشعلته، وعادت إلى غرفتها تمج دخانه أمام النافذة. أزاحت الستارة الشفافة. كان المكان مظلمًا، وعدا الإنارة الخافتة التي تزيِّن الحديقة، لم يبدُ أنَّ هناك عالمًا أخر خارج الجدران. تمصُّ السيجار بتؤدة، كما ترى بطلات الأفلام يفعلن، وهنّ يتمرَّغن في الرذيلة، كما تردّد لنفسها: أنتِ في الرذيلة اللائقة بك، ولستِ في زقاق حيٍّ الرمل القذر.

تدور حول نفسها، تضع كفّها على خصرها، مثل راقصة باليه، وتهمس، وهي تقرب السيجار من عينيها: أنت سيِّدة المكان.

تقترب من النافذة بعد أن صارت تقضم السيجار الثخين، تزيح الستارة، تنحني قليلاً، وتمدُّ رأسها خارج الزجاج، تعب نَفَسًا طويلاً، ثم تستقيم، وهي تمشي على رؤوس أصابعها، يصدح صوتها: آنسة عليا، النهار لم يطلع بعد. وكل ما حولك تحت سيادتك.

هبطت باتجاه غرفة السيِّد . كان أنور يشخر بصوت مدوٍّ، ولم يسمع صرير الباب الذي فتحته وأغلقته خلفها . اندسّت إلى جواره بصمت، وتعرَّت . كان يفيق بهدوء وينظر إليها . وعندما فتح عينيه وشعر أن ما يراه حقيقي، جلس يتفرَّس بجسدها . يرتجف، ويبتعد عنها . تقترب منه صامتة، وتلتصق به، وتتلوَّى في حضنه . وعندما خرجت بضع كلمات متلعثمة منه، كانت حبات العرق تنزلق فوق جبهته، وتستقرّ أسفل ظهره . لم تعرف ما الذي تفوَّه به، لأنَّها كادت توقعه أرضًا، وهو يهرب منها إلى أقصى السرير، فتلحق به .

• **تستحقين ما أنت فيه الآن .**

قالت، وهي تغالب دمعة ترقرقت في عينها، تتذكَّر خوف أنور منها، وهو يسقط عن السرير . تمسح دمعتها، وتتوغّل في الطريق، متعثِّرة بثقل حقيبتها .

* * *

رنين جديد . كان الهاتف الثابت هذه المرة .

لابد أنَّها نازك، بعد أن يئست من ردّها على النقَّال . وضعت حنان يدها على سماعة الهاتف، وفكَّرت أن تدعو نازك للمجيء، أو ترفع سماعة الهاتف وتبكي على مسمعها . تردَّدت مرة ثانية، وخطر على بالها أن تطلب من نازك مساعدتها في العثور على عليا . نازك تستطيع أن تفعل كل شيء .

توقف الهاتف عن الرنين . بدأت الشمس تهاجم الغرفة من خلف الستائر . كان خط الضوء المائل الذي حوَّل حياة حنان إلى كابوس، قد اختفى أمام حزمة الأشعة المتراقصة في فضاء الغرفة . قرَّرت ألاّ ترد .

خرجت إلى الشرفة . تنفَّست القليل من الهواء . لمحت أسراب الطيور . قفز قلبها بين ضلوعها وتذكَّرت البقعة المضاءة بحمائم تهدل أسفل سفح قاسيون . البستاني بدأ بجزّ الأعشاب

في حديقة الفيلا، ويصدر ضجيجًا أفزع الطيور، فتفرَّقت، وبقي سرب واحد يحوم في المكان. أخذت تتنفَّس بهدوء، وعادت إلى تلك الأيام التي كانت تراقب الحمائم فيها، من بقعة النافذة المواربة. ربما عليها الانشغال بسرب الطيور، ربما بأيّ شيء أخر يلهيها عن عليا!

في تلك الأيام، كان الشتاء في دمشق أبيض، لا يتّشح بالسواد. تنزل الأمطار من سفح قاسيون، تمرّ جانب الدرج الحجري، وتحت نافذة حنان، فتصدر هديراً تستعذبه، خاصة عندما تغفو وتسمعه يضرب جدار البيت، وحبات المطر الكبيرة تضرب زجاج النافذة، فتشعر بهناء وطراوة، وكأنَّها تنام فوق غيمة، وتلتحف غطاءها.

كانت في الخامسة عشرة، تتعلَّم كيف تتحوَّل إلى أنثى من حديثها مع فتيات المدرسة، ومن زيارات حمَّام النسوان، وصباحات الشام النسائيّة. أمها لم تعلِّمها فنون الأنثى. تلقي بأوامرها وتنتظر الطاعة. تمضي إلى أشهر الخياطات، وهي تعد لابنتها الوحيدة أجمل الفساتين، ثم تجبرها على الذهاب إلى دعوات العائلات الأخرى. ولا تنسى في تلك الدعوات أن تشرح للنساء، كيف تعذَّبت حتى خرج فستان ابنتها بهذا الشكل، وكيف أوصت به حتى يكون فريداً، وكيف أخذته إلى مطرِّزة خاصة. وبعد ذلك كيف دارت على الخيّاطات، واحدة واحدة،

لتقتنع بما يناسب الموديل الذي يدور في ذهنها. ورغم أنَّها تحتفظ بخيَّاطة خاصة بها، إلاّ أنَّها، كما تقول للنساء اللواتي يصغين إليها بحسد وملل، تريد أن تصنع شيئًا مميَّزًا لابنتها. وأثناء حديثها، تطلب من حنان الوقوف مراراً، والدوران أمام النساء، ليرين جمال الموديل الجديد على جسدها. تسارع حنان إلى إطاعة أمها بوقار لا يليق بسنّها، وتصبح مثار حسد إضافي للأمهات اللواتي يتمنّين لو أنَّ بناتهن يطعْنَهنَّ كما تفعل حنان الهاشمي.

كانت مفخرة عائلتها وسعادتها، والعيون تحدِّق فيها بانبهار. وعندما كبرت اعتادت أن تجعل من عيون الآخرين مرآتها. العيون الجاهزة للانبهار بحضورها. ومع ذلك، كانت اللحظات التي تفتح فيها نافذتها في صباحات دمشق، وبعد أن تتوقَّف الأمطار، من اللحظات القليلة التي تشعر فيها بالضياع. تحدِّق في بقعة السماء المتسلِّلة من بين أوراق أشجار الكينا المصطفّة حول الأرصفة، وكان ما يجعل قلبها يضيع أكثر، الحمامات البيضاء الهاربة من سطح إلى أخر. لم يكن هناك منظر أكثر جمالاً من رؤية الحمام يهدل في سماء دمشق. يرتفع إلى قاسيون ثم ينحدر إلى البيوت المتاخمة له.

في يوم اعتادت فيها أن تجلس تراقب الحمامات البيضاء، فتحت أمها باب غرفتها، وكانت تفرك أصابع يديها باضطراب لم تعهده فيها.

دخلت الأم، وأغلقت حنان النافذة، واختفت الحمامات.
سألت حنان عن دروسها، فأجابت باقتضاب وببحّة مرتجفة: بخير.

لم توارب الأم، بل صرَّحت بما تريد قوله مباشرة. سوف تتزوَّج ابن عمّها. لم تجد حنان ما تقوله. فكيف يمكن أن تتزوَّج من أنور الذي ربّاها كأخت صغيرة. ابتعدت عنها بعد أن جلست قربها على طرف السرير، وفتحت النافذة، فهبت نسمة باردة جعلت الأم ترتجف. بقيت أمام النافذة لم تتحرَّك. تطاير شعرها، وهي تفكِّر كيف طلَّق أنور زوجته منذ أشهر، وكيف كان ذلك همّ العائلة التي أرادت طفلاً يضمن استمرارها، وكيف قامت الدنيا وقعدت على رأس أنور وزوجته، لأنَّه رفض أن يتزوَّج. كانت تسمع الكثير من الصراخ بين أنور وعمّها. إنَّها خارج ما يحدث في العائلة. وحتى لو اهتمّت بما يقال، فإنَّ أحداً لن يصغي إليها.

لا بدّ أنَّ في الأمر خطأ ما، لكنَّها لم تعتد مناقشة الأم أو الاعتراض عليها، ولم تتوقع وتتخيَّل أن يكون أنور الأخ الكبير نفسه، زوجًا لها. لكنَّها صمتت، ولم تجادل أمها فيما تقرِّره. اقتربت الأم منها، وهي تربِّت على كتفها، وقالت: لن يتغيَّر شيء. كل ما في الأمر أنَّك ستغيِّرين غرفتك، وتنتقلين إلى غرفة أنور، وستتابعين دراستك. أنا أضمن لك ذلك.

حينها استدارت حنان وحدَّقت في وجه أمها، وعلامات الذهول تعلو وجهها. لم تستطع الحفاظ على صمتها أو قوتها التي علَّمتها الأم أن تحتفظ بها أمام الآخرين، فامتلأت عيناها بالدموع ونشجت:

• لا أستطيع!

أحاطتها أمها من كتفيها، وكانت من المرات القليلة التي تفعل ذلك، وهمست، وهي تداعب خصلات شعرها: لا تخافي. لن يتغيَّر شيء، ستنتقلين إلى غرفة أنور فقط، وسنبقى معًا، وتكتمل العائلة من جديد. ستتحوَّلين إلى امرأة كاملة. ولن يكون هذا صعبًا.

كيف لن يكون صعبًا؟ تسأل حنان نفسها، وهي تحدِّق في وجه أمّها بثبات، لا ترمش. تغيب عنها، وتفكِّر في أنور وزوجته التي اختفت من حياة العائلة منذ أشهر. كانت مكتفية بعالمها الصغير الذي لا يتجاوز جدران غرفتها، ولم تسأل لماذا عاد. سمعتهم يتحدَّثون في جلسات المساء، وهي تطرِّز على قماشها الأبيض طيوراً ونوافذ وأقحوان، كيف ستختفي عائلتهم إذا لم يتزوَّج أنور مرة ثانية، وكيف ستتغيَّر حياتهم لو تزوَّج مرة ثانية، مع إصراره أنَّ العيب ليس في زوجته. كل ذلك لم يعن لها شيئًا. الأمر مختلف الآن، وهي لن تقبل أن يتحوَّل الرجل

الذي عاش معها كأخ إلى زوج. تسمع الكلمة في قلبها، فينتفض جسدها، ويقشعر جلدها، فتمتلئ مسامها بحبيبات ناعمة، وتجلس متهالكة على سريرها. لم تعد تسمع ما تقوله الأم. كانت تحدِّق في شفتين تنغلقان وتنفرجان عن صمت وطنين عال في أذنيها. تشعر بخيط حارق من النار يخترق رأسها، ثم تغمض عينيها وتغرق في سبات.

بعد ذلك، لم تعرف ما الذي حدث. كانت الأمور مرتّبة، وهي في فراشها تتلقّى ما يقومون به بإيماءة رضى وذبول. أنور اختفى ولم تره. وفي الأيام التي سبقت عرسها، وبينما هي مستلقية في فراشها كملكة شاحبة، يحاول كل من حولها نيل رضاها، كان أنور يخطر في بالها كثيراً، ولا تتذكّر منه إلاّ صورته التي لن تفارق خيالها أبداً: الأخ الكبير الذي حلمت به، تذكر يديه الناعمتين، وهو يربّت على شعرها، ويلقّمها الطعام مع زوجته، مثل ابنة لهما. تذكر أيضًا النزهات الجميلة إلى بلودان والزبداني برفقتهما، وكيف كانا يقومان بتدليلها مثل جرو صغير وهي من قبل، لم تذكر هذه التفاصيل، فلماذا تعود إليها؟ إنَّه عقاب إلهي على عصيانها وكراهيتها لأمها. لابد أنَّه كذلك. صارت تطلب أن تبقى أمها بجانبها بشكل دائم حتى لا تعاودها الذكريات مثل كوابيس. والعائلة ظنَّت أنَّه خوف العروس من ليلتها الكبيرة. فأيام قليلة تفصلها عن العرس الذي أعدته العائلة

بطريقة خاصة، طريقة جعلته فرحًا عمّ منطقة المهاجرين لأيام طويلة. حنان لم تر منه الشيء الكثير. وكل الاحتفالات والرقصات والدبكات التي أقيمت في الشارع قرب بيتها، كانت تسمعها من نافذتها المغلقة. النافذة التي أقفلتها ظهيرة يوم كانت تراقب فيه سرب حمام يلعب في قطعة السماء المحشورة بين أغصان شجر الكينا.

رفضت الذهاب إلى حمَّام النسوان. وهو الاعتراض الوحيد الذي استطاعت التفوُّه به أمام عائلتها؛ ذلك سيجعلها تتأكَّد أنَّها تريد أن تلقي بنفسها، من أعلى جبل قاسيون، لتتدحرج بين البيوت الحجريّة البيضاء مفضِّلة نار جهنم على أن تلمس ذلك الرجل الذي تكرهه الآن، أكثر من أيّ كائن آخر. ومجرّد مرور ذكرى الارتعاشة الهفهافة التي حظيت بها في طفولتها، وهي في حضن ابنة الجيران، سيحوِّلها إلى كائن أكثر تعاسة مما هي عليه. لذلك فضّلت إلغاء حمّام العرس، والاستحمام مثل يوم عادي، والخروج من غرفتها، ومراقبة الخدم الذين ينقلون أثوابها وأشياءها إلى غرفة أنور الجديدة التي دخلتها برفقة أمها، والثوب الأبيض يشدّ على خصرها، وملاءة ناعمة مزركشة بالدانتيلا والخرز الأبيض البرّاق تغطي وجهها. في تلك الليلة، لم تفكّر بالألم القادم وبخوف الفتيات من الليلة الأولى. تعرف أنَّ النساء خُلقن لتحمُّل الألم، كما قالت أمها.

وأفضل ما يمكنهن فعله، هو تحمّله بصمت، ومقاومته بصلابة واتزان ورجاحة عقل.

أغمضت عينيها وأطفأت الأنوار، وجلست على طرف السرير، كما تفعل الممثّلات في الأفلام المصريّة، وانتظرت. كان انتظاراً طويلاً، لأنَّ أنور أيضًا، كان يتمنّى لو أنَّ ذلك لم يحدث. لكنَّ الطاعة التي أجادها مع ابنة عمه، والولاء الذي لم يجد منه مفرًّا، لفكرة تؤلمه في أنَّه آخر من تبقى من عائلته، جعل الأمور أسهل عليه، فدخل غرفة زوجته، ولم يشعل الضوء. وقف، وانتظر، وهو يحدِّق في الثوب الأبيض الذي بان أمامه الجزء البسيط منه، خلال الخطوط الشاحبة التي تسلَّلت عبر النافذة من الشارع. كانا متواطئين على العتمة. وحتى اللحظة التي أمسك فيها يد عروسه وقبلها، كانت الأمور جيِّدة. لكنَّه لم يتمالك نفسه، عندما ضمها إليه، وهي ترتعش، فربَّت على جبينها كما فعل دائمًا، وهي في حضنه طفلة تلهو بشاربيه وخديه. حينها شمّ رائحة يعرفها، رائحة الأطفال الرضع. فابتعد عن ابنة عمه، وأزاح الستارة لتخفي آخر ما تبقّى من ظلال، ولتختفي صورتها من أمامه.

في تلك الليلة، كبرت حنان، تركت عالمها القديم، واندسّت ببراعة وصمت، في تفاصيل الواجبات اليوميّة. عندما

سألتها الأم، كيف تصرَّف زوجها، وهل كان كيِّسًا ولطيفًا، لم تجب. وفسَّرت الأم صمتها بالخجل، ولم تعد لفتح الموضوع إلاّ فيما بعد، عندما بدأت تسأل أمها كيف يمكنها أن تجعل زوجها يحبّها في الفراش. وتخاف الأم عندما تخبرها أنَّه أراد أن يبتلعها من شفتيها أو يقضم صدرها، وشعرت أنَّ هذه البنت ليست كاملة، وعزت الأمر إلى التقصير في تربيتها وإعدادها لتكون زوجة جيِّدة، والمبالغة في فرض قواعد الأدب عليها. لكنَّ ذلك كلّه لم يكن ليجدي نفعًا أمام خوف حنان من الليل، خاصة بعد أن مضت سنوات لم تنجب فيها، ولم ينتفخ بطنها. وبدأ أنور بالابتعاد عنها، ليس عنها فقط بل عن البيت بأكمله. ولم تنتبه أنَّها غرقت في إتمام دراستها، والاهتمام بشؤون أمها وجاراتها، وحفلاتها وواجباتها، وتابعت دراستها لأنَّ أمها أرادت ذلك، وبقيت في البيت من أجلها. لم يثر الأمر اهتمامها، ولم تتدفَّق الحياة في عروقها، وكأنَّها ولدت ميّتة، أو أنَّها خلقت من أجل أن تتّجه نحو موتها، وبدت عليها رغبتها الضارية في الاتجاه نحو سبات يجعلها ترتاح من عالمها، وكأنَّها لم تكن، أو حتى كأنَّها لم تكن ابنة أمها.

الآن تسأل نفسها: ماذا كان سيحدث لو أنَّها رفضت أنور بإصرار؟

أفاقت من شرودها، على صوت الهاتف يرنّ من جديد. فعادت إلى داخل الغرفة وأسدلت الستارة، وكأنَّها تريد أن تختفي من عيون الهاتف. خيَّمت العتمة على غرفتها، فشعرت بالاطمئنان. نزعت سلك الهاتف الثابت. وبيدين مرتجفتين، أغلقت هاتفها النقال ورمته أرضًا. استلقت على سريرها منهكة، يخايلها وجه نازك، تفكِّر كم عذَّبتها، وكم فعلت نازك لاسترضائها واستعادتها من خادمة مليئة بالبثور. خادمة هي في النهاية: حبيبتها الصغيرة!

* * *

حبيبتها الصغيرة، فقدت الأمل بمرور سيّارة الزبالة، أو رؤية إنسان يمشي في هذا المكان الصامت، رغم أنَّ الشمس اقتربت من قبة السماء. سرح عقل عليا في مكان أخر، حيث تنتمي، تخلع عنها أقنعتها، وتعود إلى حضن أمها كما خلقتها. وتطمئن نفسها أنَّها لن تدع حياتها تمضي كما عاشت من قبل، ستفعل أشياء كثيرة.

انكسر كعب حذائها العالي لحظة خبطت فيها الأرض بغيظ، وهي تؤكِّد أنَّها ستكون بخير. فوقعت، ونظرت نحو الوراء. لا تعرف لماذا شعرت بوخز حادّ في صدرها، بينما تتخيَّل أنّ العالم السابق قد مُحي، وكأنَّه لم يكن.

خلعت حذاءها، وانتبهت أنَّ مسمارًا صغيرًا هو سبب المشكلة كلّها، وأنَّ بوسعها إصلاحه. وضعت حقيبتها جانبًا، وانتقت حجرًا وأعادت تثبيت مسمار الكعب. ارتدت الحذاء

المخلخل. استأنفت سيرها بحذر. لماذا لم تأت بحذاء أخر؟ توقفت ثانية، وتذكَّرت شيئًا: هي لم تملك حذاء! كان الحذاء الذي تنتعله من أحذية حنان.

تحاول تذكُّر الأحذية التي ارتدتها، وهي في بيت حنان، فتضحك، وتكتشف ثانية أنَّها لم تملك أيّ حذاء للخروج. كل ما ملكته كان أحذية خاصة للبيت، وللخدمة. حتى في الأوقات النادرة التي اضطرّت فيها للخروج، كانت تنتعل الحذاء الذي تستخدمه في البيت. لم يخطر في بال حنان التي أغرقتها بالهدايا وعلَّمتها تدخين السيجار، أن تشتري حذاء لها. كانت سجينة وخادمة نزواتها، ولا تريدها أن تغادر الفيلا أبداً.

واصلت سيرها، تحلم بغرفة أمها، تُطمئن نفسها بأنَّ الأمور ستكون أفضل، حالما تصل إلى حيّ الرمل. فجأة لاح لها من بعيد خيال ما. قفز قلبها، وركضت نحوه. اكتشفت في لحظتها أنَّها تتوهّم، وكان اكتشافها خيبة جرَّتها نحو الركض ثانية. تذكَّرت أنَّ أنور بقي في غرفته عاريًا. شعرت بالشفقة عليه، ثم قطَّبت حاجبيها. كانت تعرف سعادته بانتظارها في لياليه الطويلة، تلمح شوقه وحبوره عندما تحفّ به وهي تنظِّف البيت، أو عندما كان يتظاهر بالنوم والخوف، وهي تتعرَّى بغرفته، متجاهلة نظراته المستكينة. اقتربت صورة أنور، صورته الأخيرة، رائحة جسده، فشعرت بتقزُّز، وتنهّدت من جديد.

كانت رائحة السيِّدة تجعلها تتفتَّح وتستطيل. رائحة السيِّد، تجبرها على الاغتسال في نهاية الليل. لماذا إذًا تفعل معه ذلك؟ لماذا خرَّبت حياتها بنفسها؟!

هزّت كتفيها، واستمرّت في المشي حتى تبتعد عن حنان التي أفاقت بعد غفوة قصيرة، تحمل جبالاً فوق رأسها، وتنظر إلى النافذة. لوهلة لم تتذكَّر من هي، تحسَّست صدرها الذي لم تنمُ فيه الأثداء. تحت جلدها نمل يتحرَّك، نظرت إلى يديها ولم تر أيّة حشرة، شعرت بدبيب نمل يأكل قلبها، فانفجرت بالبكاء.

فتحت نافذتها على السهل الأخضر والقصور الصغيرة، ذات الواجهات القرميديّة، تفكِّر بعليا، و بملامح وجهها الفزِع. وشعرت أنَّها تحبّها أكثر من أيّ وقت مضى، وتخيَّلتها تمشي وحيدة بقامتها الطويلة، واشتعلت نار في صدرها، وهي تستعيد عينيها المخضلّتين بالدموع.

ركضت دون أن تضع حجاب رأسها. ولم تلتفت إلى البستاني، وهو يقلِّم الأشجار، ولم تنتبه إلى أنَّها حافية إلا بسبب وخز الحصى الحاد تحت قدميها. اتّجهت مباشرة إلى سيارتها واكتشفت أنَّها لا تحمل مفاتيحها، فركضت ثانية، بجنون أكثر، وصعدت نحو الطابق العلوي لاهثة، وأفرغت حقيبتها الجلديّة بسرعة، ثم تناولت مفاتيحها، ونزلت، وركبت سيارتها.

جرى البستاني يفتح البوابة الحديديّة الكبيرة مذهولاً، فوجدها مفتوحة، واستغرب الأمر، فقد أوصد المزلاج قبل أن ينام، لكن جنون السيِّدة التي تقود بسرعة لم يجعله يفكِّر. ركض مسرعًا إلى الفيلا بعد شعوره أنَّ مصيبة وقعت، لأنَّ السيِّدة خرجت بقميص نومها الشفّاف، حافية القدمين. شعرها منكوش، وعيناها حمراوان. ظنّ أنَّ السيِّد مات. فركض مسرعًا إلى غرفته. وفوجئ عندما وجده واقفًا وراء النافذة، بالكاد يحمل نفسه، ويتَّكئ على عكّازه العاجي، يراقب حنان بحياديّة، ولم يُعِرْ البستاني انتباهًا. حيّاه الرجل وظلّ جامدًا في مكانه. ولوهلة خُيِّل إليه أنَّ سيِّده تحوَّل إلى حجر؛ رموشه لم ترف، وعيناه مفتوحتان باتساع مرعب.

قادت حنان سيّارتها بسرعة، وقلبها يخفق. تمسح بعينيها المكان، فلا تجد أثرًا لعليا. تدخل في كلّ الطرق الجانبيّة، وكلّ مداخل القصور، وتعود منها، مخلِّفة وراءها كتلاً من الغبار والخيبة. الطريق هادئ إلى درجة مفزعة. خافت، وهي تتلفَّت حولها، تراقب ما إذا كان بإمكان أيّ كائن حي، أن يكتشف فضيحتها الحالية. فكل واحد من جيرانها بنى هذا المكان بعيداً عن ضجة دمشق، ليحتفظ بأسراره وأشيائه الخاصة، وليتمتّع بتنفُّس طبيعي، بعيداً عن تلصُّص الجيران، وعن أخبار الفضائح التي قد يتعرَّضون لها، هنا في القصور الغريبة الأشكال

والأحجام، المحاطة بالمسابح المزخرفة بالفسيفساء وبصالات الرياضة الفسيحة.

تدور من طريق إلى طريق، وعليا كانت أبعد مما تظنّ. انقبض قلبها عندما لمحت، عن بعد، عدة كلاب تتحلَّق حول بقايا حيوان. أقفلت الباب، واتجهت نحو طريق فرعي آخر. لا بد أنَّها تختبئ بين أحد هذه الأسوار، تؤكِّد لنفسها، وهي تدور بالمقود، وتعضّ شفتيها. لمعان فرح يلوح من عينيها، دارت حول عدة قصور، وانتهت إلى الخلاء والطريق الطويل الذي يفصل تجمُّع القصور عن أول قصر بعيد. كانت المسافة طويلة، والشمس تجلي المكان. نزلت من سيارتها، وجالت بعينيها، دارت حول نفسها، كأنَّها تستعد للرقص.

كان المكان خاليًا، إلاّ من أسراب طيور بعيدة. تصرخ بصوت عال:

• عليا.

كان الصوت قويًّا. تشعر أنَّه ليس صوتها. تكرِّر النداء، دون أن تحصل على ردّ أو تتآلف مع الصوت.

صعدت إلى سيّارتها، وانطلقت بسرعة أفزعت سرب حمام أخذ يدوِّم عاليًّا، وواصلت الاندفاع، مخلِّفة وراءها سحابة من الغبار الكثيف.

تحكي رواية «رائحة القرفة» عن علاقة سيّدة دمشقيّة بخادمتها الصغيرة، وتغوص في عالمَيْهما، العالم السفلي المدقع الفقر، وعالم الطبقة المترفة. وتتحوّل هذه العلاقة إلى لعبة قوية في يد الخادمة وتجعل منها المبرّر الوحيد لشعورها بإنسانيةٍ مفقودة.

تفتح هذه الرواية عوالم مغلقة وممنوعة الإشهار، لأنّها تمسّ أكثر مكامن الوجع في روح الإنسان الخائف والمقموع.

سمر يزبك كاتبة وإعلامية سورية. كتبت العديد من سيناريوهات لأفلام وثائقية ودرامية ونالت الجائزة الأولى لأفضل نص في الأمم المتحدة ووزارة الإعلام السورية عن فيلمها «سماء واطئة». ناشطة في مجال حقوق المرأة. كتبت في الرواية: «طفلة السماء» و«صلصال»، وفي القصة القصيرة: «باقة خريف» و«مفردات امرأة».

دار الآداب
هاتف ٨٠٣٧٧٨-٨٦١٦٣٣
ص ب ٤١٢٣ – ١١ بيروت

تصميم الغلاف رم الجندي
لوحة الغلاف: بالتوس

ISBN: 978-9953-89-041-8

